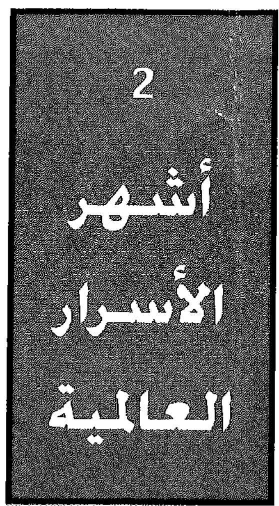
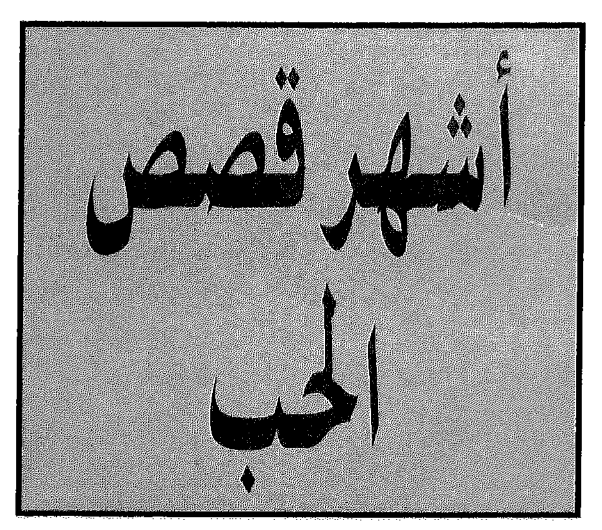

2
أشهر
الأسرار
العالمية


أشهر قصص
الحب

جولي واغنر


مؤسسة
الانتشار العربي





اشهر قصص الحب



2

اشهر الاسرار العالمية

اشهر قصص الحب

جولي واغنر



مؤسسة
الانتشار العربي
ص ب : ٥٧٥٢/ ١١٣ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

المحتويات

١

باريس وهيلين الطروادية

حتى السنوات القليلة الماضية، كانت هيلين الطروادية شخصية إسطورية محضة، وهذا لا يفاجئنا إذ أن هيلين، بحسب الأسطورة الإغريقية، ثمرة وصال خارق للطبيعة بين أميرة تدعى ليدا (Leda) وأوزةٍ هي في الحقيقة الإله زوس (Zeus) متنكراً. وتروي هذه الأسطورة أن هيلين كانت الأجمل في العالم، ابتدأت جاذبيتها في الظهور على سيمائها منذ سنتها العاشرة. رآها ملك أثينا البطل «ثيسوس» عندما كان في زيارة لأسبرطة فاختلف مع صديقه بيريثوس على الحصول عليها، فاختطفوها بينما كانت ترقص في معبد أرتميس.

ما حصل بعد ذلك يعتمد على أي مؤرخ تفضل أن تصدّق. يقول بلوتارش أن ثيسوس لم يتزوج هيلين بسبب صغر سنّها، بل تركها في قرية صغيرة تدعى أفيدنا برعاية أمه أثرا (Aethra). لكنّ مؤرخاً آخر يؤكد شهرة ثيسوس في قطف عذرية الفتيات، ويقول إن هيلين حملت جنينه ووضعت طفلة.

وتضيف الأسطورة أن أخوي هيلين، كاستور وبولوكس، هبّا

لتجدتها على رأس جيش كبير واحتلاّ مدينة أثينا. أصرّ أهل أثينا أنهم يجهلون مكان هيلين، لكن رجلاً يدعى أكاديموس (Academus) أخبرهما بوجودها في أفيدنا. احتُلّت أفيدنا وأعيدت هيلين إلى أسبرطة، وسُبيت والدة ثيسوس ونقلت أسيرة إلى أسبرطة أيضاً.

شهرت هذه القصة هيلين فتوافد الكثيرون يطلبون يدها، فقام والدها بمقابلتهم واحداً بعد آخر. وقبل أن يقبل أي واحد منهم، دفعهم إلى قَسم يؤدونه ويرغمهم على مساعدة من يفوز بيد هيلين حين يهاجمه أعداؤه. أخيراً وقع اختيار تينداروس (Tyndareus) على مينيلاوس (Menelaus)، شقيق أغاميمنون (Agamemnon) ملك مايسينا (Maycenae)، ليكون زوجاً لابنته هيلين، كما تخلّى له عن عرشه.

مرّت سنوات قليلة من هناء العيش، وضعت هيلين خلالها طفلة أسمياها هيرميون (Hermione)، قبل أن يصل زائر يدعى باريس من طروادة محمّلاً بالهدايا الثمينة للملك وزوجته. استقبله مينيلاوس إستقبالاً حافلاً إذ لم يدرك أن باريس أتى مدينته ينوي خطف زوجته هيلين.

لكن لم تكلف باريس كل هذا العناء وأدخل نفسه في هذا المأزق. تتجاذب الأساطير سيرته، تماماً كما سيرة هيلين، فقد كان إبن بريام ملك طروادة، لكن قبل أيام من ولادته، حلمت والدته هيكوبا (Hecuba) أنها ولدت شعلة من النار حولت كامل طروادة إلى رماد. قلقت لهذا الحلم وقررت التخلص من وليدها بوضعه على جبل إيدا (Ida). وجده هناك أحد الرعاة فأسماه باريس وربّاه كإبنه. شبّ الولد راعياً كأبيه، لكنه كان ذا رأي سديد وحكمة

بالغة قدماه على الرعاة فأمسى قائدهم، والمتصرف بمواشيهم. وعندما طلب الملك بريام كبشاً للأضاحي أتاه باريس بأفضلها، وشارك في الاحتفالات والألعاب حاصداً الجوائز وهازماً كل أخوته، بمن فيهم هيكتور (Hector). أحس هؤلاء بالغيرة والحقد، فقرروا قتله لكن أخته كاساندرا عرفته، فاعترف به الملك وعاد إليه ما فقده من السلطة والنفوذ الملكيين، ليصير أمير طروادة.

كما هيلين، إشتهر باريس بوسامته. لكن هذه الوسامة ساهمت في سوء حاله. فلأنه كان الراعي الأوسم في جبل إيدا، دعي ليكون حكماً في مباراة الجمال بين الآلهة الثلاث: هيرا(زوجة زوس) وأفروديت وتعرف أيضاً باسم فينوس وأثينا(أو مينرفا). كانت الجائزة تفاحةً ذهبيةً صاغتهاالإلهة إيريس (Eris)، إلهة التنافر، الغاضبة لاستبعادها من هذه المسابقة. حاولت المتسابقات رشوة باريس: هيرا بوعود الثراء والسلطة، وأثينا بوعود النصر في الحروب، وأفروديت بوعد وهبه المرأة الأجمل في العالم. قرر باريس قبول هدية أفروديت وقرر أنها الإلهة الأجمل، محولاً الإثنتين الأخريين إلى عدوّتيه مدى الحياة.

لم تكن المرأة الموعودة سوى هيلين.

كانت هانئة في زواجها، لكن مساعدة أفروديت ستمكن باريس من نيل مراده. وعندما خرج مينيلاوس إلى جزيرة كريت، تحيّن باريس الفرصة وأقنع هيلين بالفرار معه. ففرا حاملين جزءاً كبيراً من ذهب خزينة مينيلاوس معهما.

أسرع مينيلاوس إلى أخيه أغاميمنون يطلب المساعدة، فما كان من هذا إلا أن قضى عشر سنوات جمع خلالها ألف سفينةٍ بحرية ومئة ألف محارب بينهم كل من تقدم للزواج من هيلين، إيفاءً بالقسم الذي أدّوه لوالدها.



أفروديت آلهة الحب تحاول اقناع هيلين بالعودة الى «باريس»

سمع الطرواديون بأخبار الجحافل التي يحضرها أغاميمنون ومينيلاوس للهجوم على مدينتهم، فجمعوا حولهم الحلفاء من كل حدبٍ وصوب. وعندما فشلوا في إيقاف إنزال أعدائهم تراجعوا إلى داخل أسوار مدينتهم. حاول مينيلاوس التفاوض أولاً عارضاً الانسحاب الفوري إن أعاد باريس زوجته. أعلنت هيلين استعدادها للعودة إلى زوجها لكن باريس رفض فاستمرت الحرب.

في تسعة أعوام، عجز الإغريق عن اختراق أسوار طروادة. لكن في السنة العاشرة، إقترح أوليس (Ulyss) خدعة الحصان الخشبي الذي اختبأ في داخله الجنود الإغريق وتُرك أمام الأسوار ليتظاهر الجيش بالإنسحاب. أدخل الطرواديون الحصان إلى مدينتهم، فتسلل منه المختبئون ليلاً وفتحوا الأبواب. فسقطت طروادة وذُبح رجالها وسبيت نساؤها.. وأعيدت هيلين إلى أحضان زوجها.

تشير الأسطورة إلى دور لعبة هيلين في إسقاط طروادة. فقد تسلل أوليس إلى داخل المدينة بثياب متسولٍ هدفه سرقة تمثالٍ لزوس يحرس المدينة. عرفته هيلين وساعدته على سرقة هذا التمثال بعد موافقتها على العمل لإسقاط طروادة.

في أثناء سنوات الحرب، توفي باريس بعد إصابته بجروح، فتزوجت هيلين بأخيه دايفوبوس (Deiphobus)، وباعته بعد ذلك لمواطنيها الأغريق. عادت إلى أسبرطة برفقة زوجها وعاشا بهناء وسعادة. بعض الروايات تقول إن أبناء مينيلاوس، بعد موته، أبعدوها عن أسبرطة فيممت شطر رودوس إذ لها هناك صديق يدعى بوليكسو (Polyxo) لكنها ما أدركت أن بوليكسو يكرهها لتسبّبها في موت زوجها في حرب طروادة، فانتهت حياة المرأة الأجمل في العالم مدلاة على حبلٍ في إحدى الأشجار. هذه هي قصة هيلين الطروادية كما رواها كثيرون بينهم هوميروس المشهور. لكن، هل مدينة طروادة حقيقة أم هي من بنات خيال هوميروس؟ فإن كانت طروادة موجودة فعلاً، تكون هيلين حقيقية أيضاً.

في العام ١٨٢٩، تلقى الطفل البالغ السابعة من عمره هنريش شليمان (Heinrich Schleimenn) نسخة من مجلة «التاريخ العالمي» في عيد الميلاد كهدية. وما إن رأى رسم طروادة تحترق قرر

أن يذهب في يوم من الأيام لاستكشاف هذه المدينة الأسطورية. وفي العام ١٨٥٤، انتقل إلى جنوب أميركا إبان فورة الذهب هناك، فأمسى ثرياً جداً. وعندما بلغ الأربعين، كان قادراً على تحقيق حلمه باستكشاف طروادة، فتوجه مع زوجته اليونانية إلى الشاطىء الشمالي لتركيا وابتدأ رحلته.

في هذا الوقت، كان الباحثون والمؤرخون قرروا أنّ بقايا طروادة موجودة فوق جبل قرب بونارباشي (Bunarbashi) البعيدة ثلاث ساعات من البحر. لكن شليمان رفض هذا الأمر، إذ تؤكد الألياذة أن الجنود كانوا ينتقلون مرات عديدة في اليوم الواحد بين طروادة والبحر، وقرر البحث فوق رابية هيسارليك (Hissarlik) البعيدة ساعة واحدة من البحر.

وعندما بدأ التنقيب عام ١٨٧١، وجد بقايا بلدةٍ تعود إلى الحقبة الرومانية، وتحتها بلدة أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، حتى وصل إلى أطلال تسع بلدات الواحدة فوق الأخرى. وبعد إثنتي عشرة سنة، أعلن شليمان أنه وقع على كنوز الملك بريام، لكنه لم يبرّر لِمَ تركه الغزاة ولم يسرقوه. لكن السنوات التالية شهدت إثبات كذب شليمان دون أن يلغي ذلك حقيقة الإثارة التي تركتها إدعاءاته في حقل التنقيب عن الآثار.

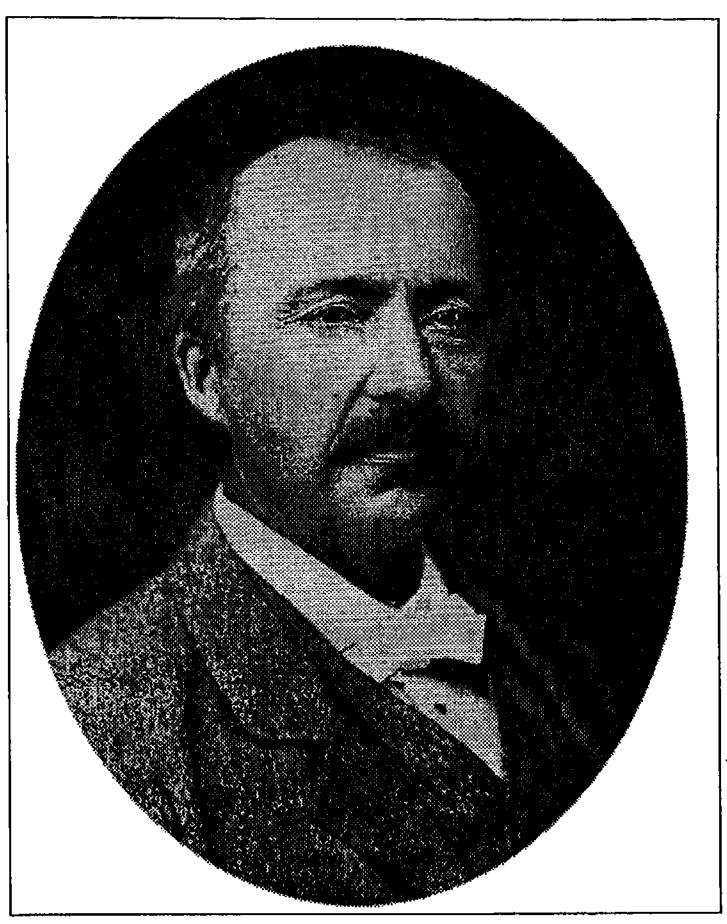
إنتقل شليمان إلى ميكانا حيث نقب ووجد قناعاً ذهبياً أكّد أنه قناع أغاميمنون، ثم عاد ١٨٨٩ إلى طروادة وأخذ ينقب قربها واكتشف أطلال بناءٍ ضخم تحتوي على بقايا آنيةٍ ميكانانية أي تعود إلى العهد الطروادي. وعنى ذلك أنه قطع وسط طروادة التي يبحث عنها ودمر الكثير من الأدلة والبراهين الثمينة. وفي السنة التالية، توفي شليمان إثر إصابته بنوبة قلبية مفاجئة.

كان شليمان قد اقتنع أن طروادة هي المدينة الثانية إنطلاقاً من القعر، لكنه اكتشف فيما بعد أنها تعود إلى ما قبل ألف عام.. فأي من المدن طروادة هوميروس؟

تابع تلميذ شليمان، ويلهليم دوربفيلد، أبحاث أستاذه، فتوصل إلى قناعة أن المدينة السادسة هي مدينة طروادة.. لكن يبدو أن هذه المدينة تدمّرت إثر زلزال وهذا ما دلّت عليه الشقوق في جدرانها وفي ركائز أبنيتها وأسوارها... وطروادة الحقيقية احترقت وتحولت إلى رماد. وفي عشرينات القرن العشرين أعلن عالم الآثار كار بليجين أن طروادة هوميروس هي المدينة السابعة التي يظهر حريقها جلياً، وأكّد بذلك أن «حصار طروادة حقيقة تاريخية».

لكن هذا الانتصار كان مبكراً جداً. فعلم الآثار دلّ أن هذه المدينة بالكاد تعود إلى ذلك التاريخ، وأنها قد تكون احترقت أو ضربها الزلزال، لكن لا دليل ولو صغيراً على وجود باريس أو هيلين. هذا الدليل سيأتي من مصدر مختلف جداً.

في العام ١٨٣٤، كان الفرنسي شارل تيكسييه (Charles Texier) يجوب وسط تركيا حين أخبره بعض القرويين عن بقايا آثار قرب بوغازكوي (Bogazkoy). فكانت تلك أطلالاً ضخمةً تعود إلى حضارة بائدةٍ جدرانها عاليةٌ وعماراتها المحطّمة مزينة بصور الشياطين المجنّحة وغير ذلك من الأشكال الهيروغليفية المجهولة. تطلب الأمر أكثر من نصف قرن للتقرير أن هذه أطلال أمبراطورية عظمى امتدّت من آسيا الصغرى إلى سوريا، وعرفت بامبراطورية الحثيّين التي هاجم جيشها مدينة بابل، والتي اندثرت حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد. حقبة سقوط طروادة كانت حقبة



الدكتور شليمان عالم الآثار الألماني الذي اكتشف طروادة

إبتداء تفسّخ الأمبراطورية الحثّية. إضافة إلى كل ذلك، كانت معظم أجزاء آسيا الصغرى تابعة لهذه الأمبراطورية ما يدلّ على أن طروادة كانت، بمعنى ما، بلدة حثّيّة.

ما وجده تيكسييه كان أطلال حتّاساس، عاصمة الأمبراطورية الحثّيّة. وخلال التنقيبات اللاحقة بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٨،

وجد المنقّب هيوغو وينكلير (Hugo Winkler) مكتبةً هائلةً من الصفائح الفخارية بعضها باللغة الحثّية وبعضها الآخر بالأكاديّة التي استخدمت في العلاقات الدبلوماسية القديمة. فُكّت رموز هذه الصفائح خلال الحرب العالمية الأولى، فكانت وثائق حول سياسة الحثّيتين الخارجية. وفي العام ١٩٢٤، أعلن المؤرخ السويسري إيميل فوريه (Emile Forrer) أنه وجد مراجع تدلّه إلى بلدٍ يُدعى «أهياوا» (Ahhiyawa) في مكان ما إلى الغرب، وقال إنها تعني «أرض ـ أكايا» (Achaia - Land)، أو بعبارة أخرى، اليونان (لطالما تحدّث هوميروس عن اليونان وسمّاه أكاينز Achaeans أو أكايوي Achaiwoi). وتوالت الإكتشافات المؤكدة لهذه، وبينها وثائق تدّل على أن الأهياويّين كانوا يحكمون شواطىء آسيا الصغرى وخصوصاً مدينة ميلاواندا (Millawanda) أو ميلاواتا (Milawata). اليوم، على بعد مئتي ميل من طروادة، ثمة مدينة تابعة لليونان تدعى ميلاتوس (Milatos).. إنها، دون شك، ميلاواتا. وبما أن الوثائق الحثّية تصف أرض أهياوا بصفة «وراء البحار»، فهذا يؤكد أن أهياوا هي اليونان دون غيرها. وتقول هذه الوثائق إن العلاقات بين ميلاواتا والحثيين ودّية وجيدة عامة، إلا أن خلافاً نشأ بين ملك اليونان والحثّيين قرابة عام ١٢٦٠ قبل الميلاد، أي تقريباً في أوان حصار طروادة، حول مدينة شمالية تدعى ويلوسا (Wilusa). في ذلك التاريخ، بحسب الوثائق التي فُكّت رموزها، يشير ملك الحثيين ماتوسيليس (Matusilis) أنه يواجه المشاكل مع الأغريق.

وبعد عشرة أعوام، كتب هذا الملك نفسه رسالة إلى إمبراطور الأغريق يدعوه فيها «بالأخ». ويبدو أن شقيق هذا الملك كان يسبب المتاعب للحثّيين على هذا الشكل: أخو الملك الأغريقي،

ويدعى تاواغالا (Tawagala)، انضمّ إلى ثائر في أرزاوا (Arzawar) ليتحرّشا بالجيش الحثّي. فجرّد الأمبراطور الحثّي حملة عسكرية فوصل إلى ميلاتوس حيث أدرك أن أعداءه قد فروا، فوجّه رسالة غاضبة إلى ملك الأغريق تبيّن أن هؤلاء قوة إقليمية عظمى في الشرق الأوسط. قد يكون هذا الملك الذي راسله الأمبراطور الحثي أغاميمنون نفسه، لكننا نجهل إن كان له أخ غير مينيلاوس.

تريستان وإيزولت

كان الحب الذي جمع بين تريستان وإيزوليت والأكسير السحري سبّبا تحريم حبهما الذي أمسى الأشهر في الغرب.

برغم الإعتقاد السائد أن هذه الرواية أسطورة متناقلة عبر العصور، إلاّ أن أدلّة على حصول العلاقة المحرّمة موجودة تدلّ على حصولها في القرن السادس في تورنوال. خلال القرون التي تلت، توارت القصة على الألسن حتى قام الشاعر بيرول بإثبات التفاصيل في قصيدة عاشت حتى أيامنا هذه. وفي هذه القصيدة أسماء مناطق ما تزال حتى اليوم بأسمائها القديمة مثل مالباس وسوق مارازيون وحصن ديناس وتينتاجيل ولانتيان وغيرها. هذه الحقيقة كافية لإثبات أن حوادث القصيدة حصلت بالفعل. إضافة إلى ذلك ثمة دليل إضافي هو الحجر الطويل الموجود قرب الطريق المؤدية إلى مرفأ فاوي، وعليه منقوش باللاتينية: «هنا يرقد تريستان إبن كونومorوس» والبقية مجهولة لتعرض الحجر لبعض الكسور. لكن العالم ليلاند الذي عاين الصخرة في القرن السادس عشر يؤكد أن هذه بقية الجملة: «واللايدي كلوزيلا.» كونوموروس هو مارك ملك كورنوال الذي كان إسمه الكامل ماركوس كونوموروس،

المؤرخ مايكل وود يصرّ على القول إن ويلوسا هي طروادة نفسها، مستعيناً بالكثير من البراهين الجغرافية الواردة في الوثائق الحثية. إضافة إلى ذلك، يُدعى ملك ويلوساألاكساندوس، والأسم الثاني لباريس الإكساندروس. وهوميروس يشير إلى باريس تكراراً تحت إسم أليكساندروس الطروادي.

ثمة دليل آخر على وقوع حرب طروادة، توصل إليه بليجين خلال استكشافه في بايلوس (Paylos)، موطن الملك نيستور

والذي إمتدّ حكمه حتى حصن فاوي. إن ترجم كلوزيلا إلى اللّغة القديمة لأصبح إيسيلت، أو بالفرنسية إيزولت.

في الوقت نفسه، أظهرت حملة التنقيب في تينتاجيل أنها كانت مقراً صيفياً لحاكم كورنوال. ومن هنا، بدأ وأتباعه تجارةً مع المتوسطيين وإيرلندا عبر البحر. حكم ماركوس كونومورروس كاورنوال خلال تلك الحقبة، فتكون القصيدة محقّة إذ أسمته لورد تينتاجيل. ويرد إسم تريستان أيضاً لكن الشاعر أصرّ على اعتباره حفيد الملك لا إبنه. فلماذا؟

إن احتوت الأحداث الحقيقية في قصر الملك مارك الصيفي على غواية إبنه لزوجته الأميرة الإرلندية، وانتهت بقتل هذين العشيقين، لا بد أن الناس تناقلتها عبر الأجيال حتى تحولت إلى تفاصيل قصيدة شعر.

ومن أجل الحبكة الشعرية، كان على تريستان أن يكون حفيداً للملك بدلاً من إبنه. تحول إسم تريستان إلى دروستان وإيزولت إلى إسيلت. وما يزال هذان الإسمان منتشرين حتى اليوم في كورنوال. إنّ وجود هذا القبر هناك قد يدل على أن لقصة تريستان وإيزولت ومارن قد تكون انتهت بالصلح.. فمن يدري.

(Nestor). فبين الصفائح الفخارية هناك بعضها الذي يصف نساءً من آسيا أماء يشتغلن في الحصاد. وتؤكد هذه أن هاتيك النساء يُستقدمن من مواضع مختلفة على الشاطىء الشمالي لآسيا الصغرى، وتحديداً كيوس (Chios) وميلاكوس. ويُدل على بعضهنّ بلقب (Troja) أو «من أهل طروادة». والتواريخ التي في الوثائق صحيحة، تاريخ حقبة حرب طروادة. لا كلام على الرجال، وهذا يؤكد مقال هوميروس عن قتل كل رجال مدينة طورادة.

هذه خلاصة ما تحاول الوثائق التاريخية إخبارنا به: كانت حقبة حرب طروادة حقبةً اندلعت فيها حروب متعددة في آسيا الصغرى. إبتدأ عصر ضعف وانحطاط الأمبراطورية الحتّية فانتهز الأغريق الفرصة لغزو المستوطنات الآسيوية وتحريض الثوار. كانت طروادة حليفة الحتّيين دائماً. وثائق أخرى من جنوب غرب آسيا الصغرى تفيد أن عشيق هيلين حليف مواتاليس (Muatalis). فإن كان ألاكساندروس هو باريس هوميروس، فهو لم يكن شاباً عندما أغوى هيلين بل في منتصف عمره.

حارب الأمير أليكساندروس (باريس الطروادي) إلى جانب مواتاليس في معركة قادش (سوريا) في العام ١٢٧٤ قبل الميلاد. في ذلك الوقت، كان ثمة ملك قوي ـ أغاميمنون أو أبوه آتروس ـ على عرش ميكانا. فإن صحّت هذه التواريخ، فلا بدّ أن ألكساندروس ذهب لزيارة مينيلاوس في العام ١٢٦٤ قبل الميلاد.

وعندما طلب مينيلاوس مساعدة أخيه أغاميمنون، لم يكن هذا مستعداً لبذل أرواح جنوده كُرمى لجمال وخداع زوجة أخيه، لكنه كان يطمع في ثروات طروادة المشهورة بتجارتها وخيولها. كما أن

موقعها في شمال تركيا نقطة إلتقاء بين البحر الأسود وبحر إيجه، وبين طرق القوافل التجارية. هذا ما حدا أغاميمنون على صرف عشرة أعوام في تحضير جيوشه.

هاجم الإغريق طروادة، فلم يحرك الحثيون الضعفاء ساكناً. لكن المدينة، بأسوارها العالية المتينة، كانت منيعة جداً. واستمر الحصار عشرة أعوام أخرى. وود يقترح أن رواية الحصان الخشبي رواية شعبية لتغطية أخبار الهزة الأرضيّة التي زعزعت الأسوار وحطمت جزءاً منها استغلّه الإغريق للدخول. لطالما عبد الأغريق إله البحر بوسايدون على شكل حصان، لكنه أيضاً إله الزلزال.

قد نخلص إلى الإعتقاد أن حصار طروادة انتهى حوالي العام ١٢٥٤ قبل الميلاد، فأعيدت هيلين إلى أحضان زوجها وعاد الإغريق إلى بلادهم واحتفلوا بإنتصارهم هذا بأن صاغوه في أغانٍ رددوها في كل أعيادهم. بعد ذلك، انتهى عصر الأبطال وغرقت اليونان وجوارها في عصر الظلمات، لهذا يشكك الباحثون في أن ما يحكى قد لا يكون حدث أبداً.. إلا في مخيّلة الشعراء.

٢

الإسكندر الأكبر

يعتبر الأسكندر المقدوني أعظم القواد الذين عرفهم هذا العالم منذ فجر التاريخ. فهذا نسج حياته العسكرية على خطى أخيل الهوميري خصوصاً بعد اقتناعه أنه يتنزل من سلالة هذا البطل الأسطوري من جهة والدته. كما أخيل، كان الأسكندر شجاعاً ووسيماً، ومات مثله شاباً بعد قليل من وفاة عشيقه.

ثمة جوانب متعددة في سيرة الإسكندر وجدت طريقها إلى الأسطورة: أستاذه الفيلسوف أرسطو ووالدته أوليمبيا ـ التي يعتقد أنها كانت ساحرة ـ واتهمت بقتل زوجها الملك فيليب ـ وبوسيفالوس الحصان الذي يرفض أن يعتليه سوى الإسكندر نفسه. وأخيراً هيفاييستيون عشيقه ونائبه في قيادة الجيش، الذي لم يفضل المؤرخون ذكره ليوفّروا إثبات ذكر العلاقة بينهما.

في اليونان القديمة، كانت العلاقات الشاذة مقبولةً كما العلاقات الجنسيّة مع الزوجات والعشيقات، إذ اعتبرت موضةً لا إنحرافاً، أو جزءاً من تجربة تعليمية.

كانت المدن اليونانية تعتبر منطقة مقدونيا الجبلية البعيدة

(مايعرف اليوم بمنطقة البلقان) بلاداً يسكنها البرابرة غير المتحضّرين، وكان سكان هذه المدن يتندرون حول أهل مقدونيا الجلفاء القساة بلحاهم الكثة ولكنتهم القاسية وسلوكهم البدائي. وفي العام ٣٥٦ قبل الميلاد، ولد الإسكندر وفي هذا العام، كانت المدن الإغريقية تتناحر فيما بينهما، فرأى فيليب، والد الإسكندر، الفرصة مؤاتية لتوحيد اليونان تحت سلطته، وبعد ذلك يقوم على رأس الجحافل اليونانية بغزو مملكة الفرس المعادية التي تتحكّم بكل آسيا، ليصبح ملكاً عليها.

إبتدأ حلمه هذا حين كان في الخامسة عشرة إذ اعتقله ضابط إغريقي وأرسله إلى ثيبيس يضمن حسن سلوك أخيه الكبير الملك الكسندر. بُهر فيليب لتحضر هذه المدينة وتقدمها وابتدأ يتعلّم آدابها وفنونها وفلسفتها. وعندما قُتل أخوه، عاد إلى مقدونيا واستولى على العرش. كانت مقدونيا مستنقع ماء آسنة بالمفارقة مع ثيبيس، فقرر فيليب تطويرها وتحويلها إلى يونان أخرى. فطور الجيش واجتاح الأراضي إلى الشمال لتكون الأولى في سلسلة غزواته التي هدف من ورائها إلى الشهرة والمجد. فتحول من الشمال إلى الشرق ثم إلى الجنوب ليحتل اليونان نفسها: فسقطت ثيبيس وأثينا.

وفي أوج انتصاره، انتهت حياته على يد أحد أمناء بلاطه الذي يُعتقد أنه كان مدفوعاً من الملكة أوليمبيا، والدة الأسكندر... كان هذا الصبي لم يبلغ العشرين بعد حين وجد نفسه مضطراً إلى إكمال ما بدأه والده، فقرر أن يفعل ذلك بإصرار وبحسب خطط حربية أدهشت الجميع ودفعت الناس إلى تصديق إعلان أولمبيا أن الإسكندر ليس إبن فيليب بل إبن الإله زوس.

كان الإسكندر وسيماً مستقيم الأنف عريض الجبين ممتلىء الفم، ذا شعرٍ أملسٍ فاهي اللون بعكس أهلِ مقدونيا ذوي الشعر الأسود واللحى الكثّة. لم يحترمه النقاد أولاً لكنهم اضطروا إلى الإعتراف الصريح بشخصيته القوية وبانتصاراته الرائعة.

أما هيفايستيون فكان بعمر الإسكندر، إبن أحد نبلاء مقدونيا، كان رفيق الأمير في أيام الدراسة إلى جانب آخرين تحوّلوا إلى مستشاري الإسكندر. وبحسب التمثال الوحيد الباقي، يظهر أن هيفايستيون كان قصير الشعر طويل الأنف، لا يرقى بوسامته إلى الإسكندر لكن أطول منه.

عندما بدأ الإسكندر حملة اجتياح آسيا الفارسية، زار طروادة ليقدم احترامه لأبطال اليونان الذين قتلوا في الحرب الطروادية قبل ٨٠٠ عام، وليضع أكاليل الورد على قبري أخيل وعشيقه باتروكلوس (Patroclus). وبرغم أن أعداد الجيوش الفارسية تفوق أضعاف الجيوش اليونانية، إلاّ أن الجنود الذين أثار الأسكندر حماستهم قاتلوا بضراوة وإصرار وانتصروا في كل المعارك التي خاضوها. وبعد معركة إيسوس (Issus) عام ٣٣٣ قبل الميلاد، فرّ داريوس ملك الفرس تاركاً زوجته وحريمه لأعدائه. لحسن الحظ، كان الإسكندر رحيماً لا يؤذي الأسرى خصوصاً بعدما منع الإغتصاب منعاً باتاً.

إلى جانب كون هيفايستيون عشيق الإسكندر، كان صديقاً ومقاتلاً شرساً وقائداً حكيماً في جيش المقدوني. وبعد انكسار داريوس النهائي، انشأ الإسكندر نظاماً للحكم يدمج نظامي فارس واليونان وأمسى هيفايستيون الوزير الأكبر والقائد الأول للحاكم الملك الإسكندر العظيم.

خلال سنوات اجتياح آسيا الإحدى عشرة، لم يمضِ الرجلان وقتاً كافياً سويةً إذ انهمكا في أمور الحرب والحكم خصوصاً أن المملكة الجديدة واسعة الأرجاء. لكن بعد أن أمسى ملك فارس، قرر الإسكندر توثيق علاقته بعشيقه من خلال أن يتزوجا بفتاتين أختين، وذلك أن فكرة اليونان عن الجنس لا تمنع أن يتزوج العشاق الذكور من إناث.. كان الإسكندر قد تزوج من روكسان الجميلة، ثم نظم احتفالاً جماعياً في سوسا ليتزوج مئة من ضباطه بفتيات فارسيات. ثم تزوج هو من إبنة الملك أرتكسيس الصغرى، ومن إبنة الملك داريوس البكر، بينما تزوج هيفايستيون من إبنة داريوس الصغرى.

وعندما أدرك أن عشرة آلاف من جنوده متعلقون بعشيقات آسيويات، نظم مهرجاناً زوّجهم خلاله جميعاً من هاتيك العشيقات بعد أن رصد لهم الأموال التي يحتاجون إليها.

وبعد ستة أشهر من احتفال سوسا، انتقل البلاط إلى مقره الصيفي في همذان حيث نظم الإسكندر مهرجاناً من الألعاب دام أسابيع متعددة. خلال هذا المهرجان، مرض هيغايستيون فوضعه الطبيب تحت نظام غذائي قاسٍ. وعندما أحسّ بالراحة، انتهز فرصة غياب الطبيب ليتناول وجبةً من الدجاج والنبيذ.. لكن ذلك عجّل بوفاته إذ كان يعاني من حمى التيفوئيد. استدعي الإسكندر لكنه وصل متأخراً.. مات عشيقه ولم يكن بقربه.

حزن الأسكندر لموت عشيقه ورفيق دربه كثيراً، فأمضى الليالي قرب جثمانه يبكي، ممتنعاً من الأكل والشراب، تماماً كما فعل أخيل حين مات باتروكلوس. وبعد أيام، أمر الإسكندر بدفن رفيقه وبنحت تمثالٍ لأسد يقام فوق قبره، ما يزال حتى اليوم في همذان.

الغريب في الأمر أن أحد المتنبئين في بابل أرسل إلى أخيه الضابط الفارسي المسرّح قبل أيام يخبره أن هيفايستيون سيموت قريباً. وعندما استطلع هذا المنجّم غيب الإسكندر، تيقّن أن أيامه معدودة. وعندما علم الضابط بهذا الأمر، قرر أن يحذّر الأسكندر. لم يأبه القائد العظيم لهذا التحذير ونسي أمره.

ثمة نبوءة أخرى عن موت الإسكندر تحدّد المكان، وذلك حين مرض صديقه الناسك الهندي كالانوس وأصرّ على أن يحرق نفسه. فصعد إلى المحرقة وودع الإسكندر الحزين لفراق صديقه هذا وقال له: «نلتقي في بابل»، ثم دخل إلى النار طائعاً.

عاد الإسكندر إلى بابل، عاصمة بلاد فارس، بعدما أرسل يسأل الآلهة عن كيفية دفن هيفايستيون، فأتى الرد أن يعامل معاملة الأبطال أنصاف الألهة. فأمر الإسكندر ببناء محرقة كبيرة على شكل هيكل، وهياكل أخرى في كل البلاد على شرف هذا البطل. وفي أثناء هذه التحضيرات، توفي الإسكندر الأعظم. تقول بعض القصص إنه مات مسموماً، وبعضها الآخر إنه توفي جراء إدمان الكحول. الأكثر قبولاً هو موته إثر إصابته بالحمى، وهو بسنّ الثانية والثلاثين.

حين كان يرقد على فراش الموت، دخل الجنود، الواحد بعد الآخر، لإلقاء التحية الأخيرة على القائد الملك. وبعد موته، تقاسم ضباطه مملكته الواسعة إذ كانت أكبر من أن يتولى واحد فقط إدارتها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣

أنطوني وكليوباطرة

إختبرت كليوباطرة في حياتها القصيرة ـ إذ انتحرت وهي في التاسعة والثلاثين ـ ماتحتاج نساء أخريات إلى تسعين عاماً من الحياة لاختباره وتجربته.

بخلاف الإعتقاد السائد، لم تكن كليوباطرة مصرية، بل كانت من أصول إغريقية، وعلى الأغلب شقراء. قبل ثلاثمئة عام من ولادتهاـ ٦٩ قبل الميلاد ـ اجتاح الإسكندر الأعظم مصر وأسس مدينة الإسكندرية حيث ستعيش كليوباطرة وستموت. بعد وفاة الإسكندر بالحمى، أعلن أحد قواد جيوشه، سولوكاس (Seleucas)، نفسه ملكاً على مصر مؤسساً عهد البطالمة (ptolemies). حلمت كليوباطرة أن تكون أعظم البطالمة تمد نفوذها على البحر المتوسط كلّه، حتى روما. لكنها لم تنجح سوى أن تكون آخر البطالمة.

كانت جدّة كليوباطرة مومساً تحصر تعاملها بالزبائن الأثرياء الذين يوفرون لها حياةً مترفةً. أمست عشيقة الملك وأنجبت له كيلوباطرة تريفاينا (cleopatra tryphaina). في هذا الوقت، تزوج

بطليم الثاني من أخته(كما كانت عادة الفراعنة) وأنجبا بنات عديدات بينهن كليوباطرة وأختها بيرينيس (berenice).

عندما خرجت كليوباطرة إلى الدنيا، كان عصر انحطاط البطالمة قد بدأ إذ رفضت روما الاعتراف بحكم أبيها «أوليتيس». لكن الرومان كانوا منشغلين بمشاكلهم الخاصة إذ كانت مدينتهم ترزح تحت «ترويكا» مؤلفة من الثريّ كراسوس (crassus) والقائد الفذ بومبيي (pompey) والسياسي اللامع يوليوس قيصر (yulius ceasar) الذي إشتهر بملاحقة النساء. أمسى هؤلاء الثلاثة دكتاتورات روما التي كانت تُحكم وفق إنتخابات جمهورية ديمقراطية.

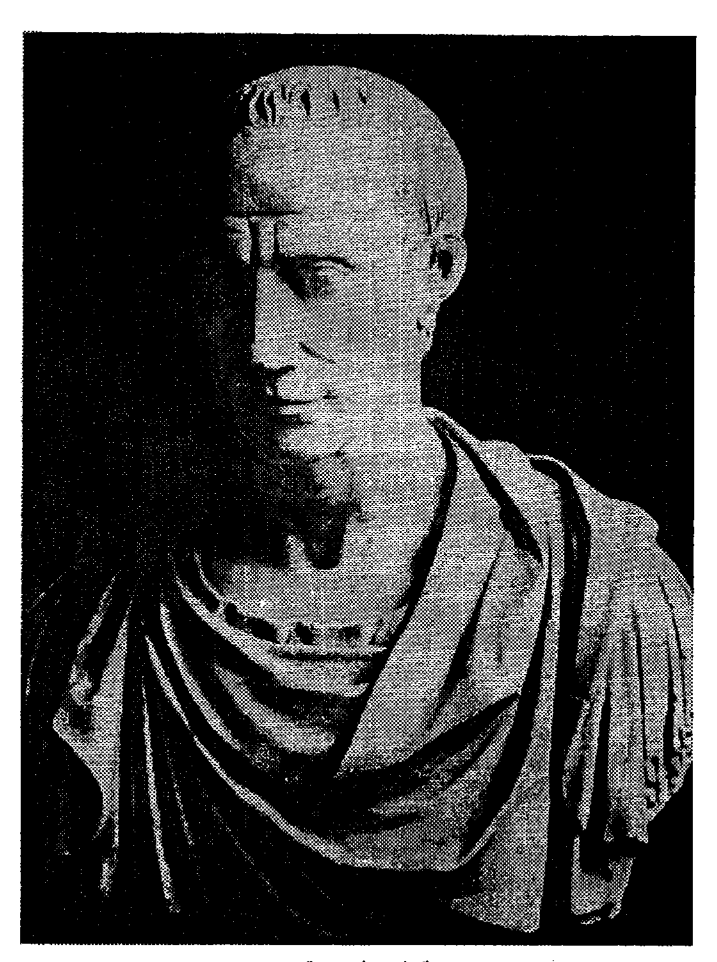
إنقسمت روما إلى قسمين أساسيين إذ تجاذبها حزبان هما حزب المحافظين وحزب الليبراليين. وغريب هذا الأمر إنضمام قيصر وبومبيي وكراسوس إلى العمال الليبراليين، إذ أدركوا أن بقاءهم في السلطة ممسكين بصولجان النفوذ مرهون بالدعم الشعبي لا تغطية السياسيين. في العام ٥٩ ميلادية، عيّن قيصر قنصل روما، وبرغم أن مرافقه في القنصلية محافظ، استطاع تمرير كل قراراته وقوانينه، حتى اضطر هذا المعاون إلى التقاعد الباكر. وفي نهاية عهده بالقنصلية، عيّن قيصر نفسه حاكماً على بلاد الغول (Gaul) للسنوات الخمس القادمة. إذ سئم حياة روما وسياسييها الذين اعتادوا الطعن في الظهر وأراد فرصة فيها يثبت جدارته العسكرية. وهذا ما فعله إذ قمع العديد من الثوار في بلاد الغول وتجاوز «القناة» عام ٥٥ قبل الميلاد ليحوّل بريطانيا إلى مستعمرة رومانية.

في روما، سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ، فقرر كراسوس أن يتبع خطى قيصرٍ لكنه لم يكن محظوظاً إذ بعد هزيمة ألحقها به

الباريثيون، دعاه قائدهم إلى مأدبة أخوية وقطع رأسه. أما بومبيي فأدرك أن قيصر هو عدوه الأوحد فانتقل إلى صفوف المحافظين.

بانتهاء السنوات الخمس، أرسل قيصر إلى روما يقترح أن يستقيل وبومبيي من منصبيهما. رحب مجلس الشيوخ بهذا الإقتراح، لكنه اصطدم برفض بومبيي. فما كان من قيصر سوى الزحف العسكري بجيشه إلى إيطاليا. كان قراره حكيماً. فالإيطاليون يحتاجون إلى بطل قائد ولهذا أخذوا ينضمون إلى جيش قيصر في طريقه إلى روما. كان بإمكان بومبيي أن يهزم قيصر إذ هو ضابط مشهود له بالكفاءة وجيشه أقوى من جيش قيصر، لكن هذا الجيش كان عديم التنظيم لا ينفع لمواجهة الفصائل التي تمرّست بالقتال في بلاد الغول وبريطانيا. تراجع بومبيي عن روما ودخلها قيصر وحيداً أعزلَ من السلاح وأمسى ديكتاتورها الأوحد. وفي العام التالي، هزم قيصر جيش بومبيي في معركة فارسالوس، ففر بومبيي والتجأ إلى مصر معتقداً أن إبن البلطيم هناك سيساعده. وما إن وضع قدمه على الأراضي المصرية حتى قامت لجنة التشريفات المرسلة للترحيب به إلى طعنه حتى الموت. وحين وصل قيصر إلى مصر بعد ذلك بأيام، استقبل برأس بومبيي المفصول عن جسمه. صدم المصريون حين انهمرت دموع قيصر وغضّ نظره مرعوباً.

في هذا الوقت كانت مصر منقسمة إلى معسكرين: أنصار بطليم الثالث عشر الشاب وأنصار أخته كليوباطرة. فهذه تزوجت من أخيها البالغ من العمر عشر سنوات بعد وفاة والدها منذ ثلاثة أعوام فأصبحا حاكمي مصر المؤتلفين. لكن الحكام الحقيقيين كانوا المخصّي بوثينوس والمعلم ثيودوتوس وقائد الحرس الملكي آشيلاس.



تمثال يوليوس قيصر

اعتقدوا أن ولداً في العاشرة وبنتاً في الثامنة عشرة لن يسببا لهم المتاعب، لكنهم أخطأوا في اعتقادهم هذا. فكان لكليوباطرة أفكارها الخاصة ونواياها أن تصبح حاكمة مصر الوحيدة.

فحين حطّ قيصر رحاله في الإسكندرية آملاً أن يكتسب الأنصار، وجد نفسه في خضم معارك سياسية طاحنة. وعندما

وجد بوثينوس أن مقتل بومبيي لم يدرّ عليه دعم قيصر، أخذ يحرّض الناس ضد الرومان مقنعاً إياهم أن هؤلاء يبغون أن يحكموا مصر. فاندلعت الإضطرابات وقُتل العديد من العسكر الروماني، وأمسى قيصر سجين قصره الملكي.

وجد قيصر أنه يملك حق التدخل في شؤون مصر، فدعا بطليم وأخته إلى الكفّ عن المنازعة وإلى حكم مصر كملك وملكة. اعتقد مستشارو بطليم أنهم يدركون كيف تجنب هذا: فبطليم في مصر وأخته في المنفى. وطالما يقوم جيش أشيلاس بقطع الطريق عليها فلا مجال لعودتها إلى الإسكندرية. لكنهم لم يقدروا دهاءها حق تقدير. ففي أحد الأيام، وصل تاجر السجاد الصقلي أبولودوروس إلى القصر الملكي زاعماً أن قيصر طلب رؤية بعض السجاد. وعندما فكّت لفافة السجاد بحضور قيصر، انتصبت كليوباطرة صارخة إذ أوشكت على الاختناق. لا وثائق تؤكد ما حصل بعد ذلك، فلا بد أنها كانت أكثر المشاهد رومنسية في التاريخ. فكليوباطرة لم تكن جميلة لكن فيها من الجاذبية ما لا يقاوم، خصوصاً أن المصريات من الطبقات العليا لم يكن يرتدين لباساً بين العنق والوسط. وبما أن قيصر المهووس لم يعاشر امرأة منذ زمن، لا بد أن عينيه لمعتا شبقاً حين أمر حراسه بمغادرة المكان. يؤكد أحد المؤرخين أن اللقاء انتهى بفقدان كليوباطرة عذريتها.

لم تأتِ دعوة قيصر أن يحكم بطليم وكليوباطرة مصر سوية ثمارها. فقد كان بوثينوس يُكِن من الكراهية لكليوباطرة تمام ما تكنّه له، فأرسل إلى آشيلاس أمراً بجلاء قواته عن الإسكندرية. ثار أهل الإسكندرية حاصروا قصر قيصر. وعندما أدرك هذا أن بوثينوس يخطط لاغتياله، أرسل أحد أعوانه فقتله. وفي هذه الأثناء

طلب قيصر معونة من سوريا وعبر المتوسط، وأحرق سفنه في المرفأ كي لا تقع في أعدائه فأدّى هذا إلى إحراق مكتبة الإسكندرية.

وصلت حملة الدعم الرومانية، وانسلّ قيصر عبر خطوط العدو ليقود الجيش. فهزم جيوش المصريين وأباد منها الكثير. أما الملك الشاب بطليم فأغرق في النيل. وهكذا وجدت كليوباطرة نفسها حاكمة مصر الوحيدة وعشيقة القائد الروماني الأعظم. يفيد المؤرخ الروماني سويتوينوس (Suetonius) أن كليوباطرة سحرت القائد يوليوس قيصر فقضى تسعة أشهر بالإسكندرية في الإنغماس المفرط في العربدة والمجون. بينما يؤكد مؤرخون آخرون أن قيصر تخلّف عن العودة إلى روما تسعة أشهر بسبب الطفل الذي رزق به من كليوباطرة وأسماه سيزاريون.

في هذه الأثناء، قام فارناس ابن ميثريدات بتحريض بلاد الشرق ضد الأمبراطورية الرومانية. وأدرك قيصر أن انضمام بلاد الغول وإسبانيا إلى الثوار يؤدي حتماً إلى اندثار الأمبراطورية الرومانية. فأبحر من الإسكندرية في العام ٤٧ قبل الميلاد وهزم فارناس في زيلا (Zela)، ودخل إلى روما ليستقبل فيها استقبال الأبطال الفاتحين. لكن الوضع السياسي في المدينة كان متعثراً جداً. فإبن بومبيي أنشأ جيشاً في إسبانيا، وكان أعداء قيصر يحرّضون العبيد على الثورة لإسقاطه. وقبل أن يلتقط أنفاسه بادر إلى خوض المعارك الجديدة، فخرج منها منتصراً، حاكماً أوحد على روما.

وصلت كليوباطرة إلى روما مصطحبة معها زوجها الجديد وأخاها الصغير بطليم وإبنها سيزاريون. أسكنهم قيصر في دارته ونصب تمثالاً لكليوباطرة بجانب تمثال ثينوس في أحد المعابد الجديدة. وبرغم بقائه متزوجاً من كالبورنيا، كان ثمة إشاعة أنه

يمضي لياليه مع كليوباطرة التي ستصبح زوجته ما إن ينصّب نفسه ملكاً ويطلّق كالبورنيا. وهذا كان واحداً من الأسباب التي أدت إلى مقتله في العام ٤٤ قبل الميلاد على يد أعدائه القدماء أمثال كاسيوس وبروتوس اللذين عفا عنهما.

ففي أحد الأيام رجته زوجته ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ إذ رأته في حلمها مغطّى بالدماء. لكن بروتوس دفعه إلى تجاوز هذه الخرافات.. وما إن دخل المجلس حتى هبّ المتآمرون وأخذوا يطعنونه. وعندما رفع بروتوس خنجره، صاح به قيصر «حتى أنت يا بروتوس؟» ثم أسلم الروح.

وأثناء مقتل يوليوس قيصر، كان صديقه وأمين سرّه مارك أنطوني منهمكاً في نقاش شغله عن صديقه، فما كان منه إلاّ أن انسلّ بعد قليل من الجريمة إلى حيث يحتفظ يوليوس قيصر بوصيته. فتحها فوجده موصياً بحدائقه جميعاً لشعوب روما يستخدمونها كمتنزهات عامّة، وبقليل من المال (قرابة الأربعين دولاراً أميركياً بعملة اليوم) لكل مواطن في روما. شاعت هذه الأخبار في المدينة، وعندما وقف مارك أنطوني بقرب نعش الميت يؤبّنه بان سخطه وابتدأت الجموع المحتشدة بالبكاء ورمت النساء حليهنّ على النعش والجنود سيوفهم. استمرت الإضطرابات في روما ثلاثة أيام قتل الشعب الثائر خلالها معظم المتآمرين على قتل يوليوس قيصر، عدا بروتوس وكاسيوس. اضطر أخيراً أنطوني إلى الاستعانة بجنده الخاص لاعادة النظام والأمن إلى روما.

عادت كليوباطرة إلى الإسكندرية. وفي هذا الوقت، اختفى أخوها الصغير وشريكها في الحكم تماماً. لا تأكيدات حول مصيره سوى رأي المؤرخ جوزيفوس القائل إنها سممته وقتلته، وهذا ممكن

فعلاً لأنها لم تقبله شريكاً إلا نزولاً عند رغبة قيصر واليوم مات قيصر وهي تريد التفرّد تماماً بالحكم.

في روما، أصبح أنطوني ثرياً ونافذاً ما حدا مجلس الشيوخ إلى استقدام إبن قيصر بالتبني، أوكتافيوس، الذي كان يخدم في صفوف الجيش خارج روما. صدم هذا لموت قيصر ولنكران روما عرفان مسبّب ازدهارها، كما صدم أيضاً عندما أدرك أن أنطوني لم ينفّذ وصيّة قيصر واستبقى الأموال لنفسه بدلاً من توزيعها على العامة. فقام أوكتافيوس باستدانة المال من أحد أصدقاء قيصر ووزعه على الناس بنفسه. غضب أنطوني وظن أن أوكتافيوس يتربّص به شرّاً فتشاجرا والتقى جيشاهما في موتينا، فخسر أنطوني بعد أن تلقى جيشه هزيمة نكراء. عندما عاد أوكتافيوس إلى روما وأدرك أن أعداء قيصر ما زالوا ناشطين يستهدفونه الآن، قرر أنه الأفضل أن يعفو عن أنطوني ويقبل صداقته. مشى جيشهما المتحالف إلى روما واحتلوها دون مقاومة، وأنشأ الرجلان أسس نظام هو الأسوأ في تاريخ روما إذ ساد خلاله الرعب والقتل والخوف.

فرّ بروتوس وكاسيوس ونظمّا جيشاً في المناطق الشرقية، لكن هذا الجيش إنكسر عندما اصطدم بالجيش الروماني في معركة فيليبي، فانتحرا.

برغم الشراكة بين أنطوني وأوكتافيوس، إلا أن أنطوني اعتبر نفسه الخليفة الشرعي والحقيقي ليوليوس قيصر. لكنهما اقتسما الإمبراطورية الرومانية، فكانت مصر واليونان والمدن الشرقية من حصة مارك أنطوني، فاستقر في أوفيسوس اليونانية وجمع ثروة هائلة من الضرائب التي فرضها على الناس، وانغمس في الملذات والحفلات الإباحية إذ كانت شهوته الجنسية لا تقارن، فاستفاد من

منصبه ليضاجع النساء المتزوجات وغير المتزوجات اللواتي صادفهن.

مارك أنطوني هذا كان جندياً تحت قيادة يوليوس قيصر في بلاد الغال فلفت نظر قائده بشجاعته وقدراته الحربية، ولهذا أرسله إلى روما وهيّأه ليحتل مكانة في الجسم السياسي هناك. لكن أنطوني وجد نفسه بمواجهة أعداء يوليوس قيصر، وعندما أعلن مجلس الشيوخ عزل قيصر، عاد هذا إلى بلاد الغال ليكون قرب قائده ويعبر معه نهر روبيكون في زحفه على روما. وعندما خرج يوليوس قيصر لإخضاع إسبانيا، نصّب مارك أنطوني نائباً عنه في روما.

يشبه مارك أنطوني يوليوس قيصر في حب الجنود له، لكنهما يختلفان في مسألة السلطة. فمارك أنطوني لا يشتهي سلطة أو نفوذاً إلا كمورد رزق له ليعيش العيشة التي يحب.

وبينما كان يتمتع بملذات الحياة في طرطوس، قرر أن يستقدم كليوباطرة. وهذه كانت بداية واحدة من أشهر قصص الحب في التاريخ.

لمَ أرسل يأتي بكليوباطرة؟ قد يكون أمل منذ سنوات أن ينجح في غوايتها. فهو كان في السابعة والعشرين عندما أرسل في عديد القوات الرومانية لإنقاذ حكم أبيها في مصر. كانت ما تزال في سنتها الثالثة عشرة في ذلك الوقت، فلفتت نظر الفارس الروماني الشاب الذي يعتبر كل امرأة فريسة طبيعية له، لكنه اضطر إلى العودة إلى روما، واتخذها يوليوس قيصر بعد ثمانية أعوام عشيقة له. ويبدو أنه طلبها إلى طرطوس ـ بحجّة واهية تنصّ إنها جمعت المال لبروتوس وكاسيوس ـ من أجل تعويض الزمن الذي فاته.

صوّر شكسبير مشهد لقائهما تصويراً رائعاً جعله مشهوراً. فقد



إحدى رسوم كليوباترا

جلس أنطوني على عرش من ذهب نصب في المرفأ وعلى الحوض اصطفّت الخادمات بلباس حوريات البحر والغلمان بزي كيوبيدوس وعبق المكان بروائح العطور الرائعة. وعندما وصلت، ترك الجميع الملك وهبوا للقائها. دعاها إلى العشاء ففضلت أن

يوافيها إلى ظهر سفينتها ليتناولا العشاء هناك. وقعا في حب بعضهما سريعاً وتبادلا الهدايا الثمينة والدعوات الاحتفالية.

لا شك في أن أنطوني هو الذي وقع في الفخ، فكليوباطرة كانت تفوقه علماً وثقافة، تتكلم دزينة من اللغات تتقن الشعر والفلسفة والفنون. فإذا ما أقيم ميزان المقارنة وجد نفسه، قياساً عليها، جندياً جلفاً، ذكياً دون ثقافة. لكن، كانت هي ملكة مصر وكان هو ملك مصر واليونان وسوريا. جعلته كليوباطرة ينتظر سنة كاملة قبل أن تلبي دعوته إلى طرطوس، ثم عادت إلى الإسكندرية ودعته إلى قضاء الشتاء هناك.

عندما وصل الإسكندرية، أدرك معنى تلهفها على السلطة. فبرغم جرائم الإغتيال في روما، إلا أن هذه المدينة بقيت ديمقراطية تساوي بين أهلها. أما في مصر، فكليوباطرة هي الحاكم الوحيد دون منازع أو معارض. رهن إشارتها آلاف الخدّام يعتبرونها إلهتهم، يقتلون رجلاً لمجرّد أن ترفع حاجبيها، أو يخلعون عليه الأثواب الملكية والأموال الطائلة لحركة من يدها باتجاه مسؤول ماليتها. بالنسبة لكليوباطرة، النفوذ يساوي الحياة.

تحوّلت الحياة في الإسكندرية إلى احتفالات مستمرة دون توقف. فشاركته المآكل والشراب والفراش واللهو والقنص والصيد والطرائف. لكن سوء الحظ قضى أن توقف الاحتفالات، فقد اجتاح البارثيون المقاطعات الرومانية في آسيا الصغرى، واضطرّ أنطوني إلى الإسراع إلى المعارك، غاب عن كليوباطرة ثلاث سنوات أنجبت توأمين إذ عاد من آسيا الصغرى إلى روما حيث كانت زوجته فولفيا وأخوه لوسيوس جاهدين لإزاحة أوكتافيوس أثناء فترة من الفوضى السياسية والإجتماعية.

حوصر لوسيوس في بيروسيا، فهبّ أنطوني لنجدة أخيه وقام بشدّ حصار حول قوات أكتافيوس في برونديسيوم، لكن الجيشين رفضا القتال واصطلح أنطوني وأوكتافيوس، ثانية. بموت فولفيا، تزوج أنطوني من أخت أوكتافيوس، أوكتافيا، وتعاونا لدحر جيش سيكستوس إبن بومبيي.

كانت أوكتافيا امرأة حسناء ودودة طيبة السريرة، رافقت زوجها إلى أثينا حيث كان يحضر صفوف الفلسفة. لكن الحياة الأكاديمية أضجرته تماماً وقرر اجتياح بارثيا (ما يسمى اليوم العراق).. لكن حملة الاحتلال هذه تحتاج إلى مبالغ طائلة من الأموال. وأدرك أن مصدر تمويله الوحيد هو كليوباطرة. فأرسل أوكتافيا إلى روما وطلب من كليوباطرة ملاقاته إلى أنطاكية.

ما إن وقع نظره عليها حتى أدرك تماماً أن زواجه من أوكتافيا كان خطأ فاضحاً، وصمّمت كليوباطرة ألا تتخلى عنه ثانية. مدفوعاً منها، أرسل ألى أوكتافيا يلغي زواجه بها وأقدم على أكثر القرارات تسرّعاً في حياته كلها: تزوج من كليوباطرة. كان الأمر بمثابة إهانة لأكتافيوس ولمواطنيه في روما. فهذا الزواج لا يسري حسب القانون الروماني، كما أنه أدى إلى ازدياد عدد أعداء أنطوني. لكنه لم يأبه لكل ذلك، فهو الآن فرعون مصر الجديد وإلى جانبه محبوبته كليوباطرة، وإبناه وليّاالعهد، بعد أن أهدى المقاطعات الرومانية ككريت وقبرص وصقلية وفلسطين والجزيرة العربية وفينيقيا لزوجته ليلة زواجهما.

حصل أنطوني على ما يلزمه من الأموال لحملة على بارثيا ونظم جيشه ليثبت للجميع أنه قائد عظيم كيوليوس قيصر. لكن حملته هذه باءت بالفشل الذريع فاضطر إلى التراجع عن أسوار بارثيا بعد

خسارة نصف جنوده. خفف من هذه الكارثة بضم أرمينيا وعاد إلى الأسكندرية معلناً النصر وأن سيزاريون هو الوريث الشرعي لأبيه يوليوس قيصر، ما يعني أن أوكتافيوس مغتصب للعرش. فحرّض أوكتافيوس الشعب الروماني بإثارة الأخبار أن أنطوني وهب قسماً من الأراضي والمقاطعات الرومانية لغريب وأنه ينوي نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى الإسكندرية. وأعلن مجلس الشيوخ عزل أنطوني بعد أن أقنعهم أوكتافيوس أنّ كليوباطرة تخطط لكي تصبح ملكةً على الأمبراطورية الرومانية. ربما لم يكن بعيداً من الحقيقة.

أمسى الإنفجار بين أنطوني وأوكتافيوس حتمياً. وفي العام ٣٢ قبل الميلاد، أعلن أوكتافيوس الحرب على كليوباطرة وكأنها حرب استقلال إيطاليا. لم يخف أنطوني المتسلّح بأموال كليوباطرة وبأسطولها البحري، فوجّه ٥٠٠ بارجة ومئة ألف من المشاة واثني عشر ألفاً من الخيالة نحو الشواطىء الغربية لليونان. لكن الأدميرال أغريبا، نصير أوكتافيوس، قطع خطوط إمداده فمال ميزان القوى لصالح أوكتافيوس خصوصاً بعد رفض هيرودوس مساعدة كليوباطرة انتقاماً منها لإبعاده عن بلاده لأنه رفض مضاجعتها.

حصلت المواجهة أخيراً في أكتيوم في الثاني من أيلول/ سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد. أخطأ أنطوني في قراره المخاطرة بكل قواته في المعركة البحرية ـ ربما لأنه رأى أن أسطوله أكبر من أسطول أعدائه. لكن سفنه الحربية كانت ثقيلة جداً بالنسبة لمعركة تعتمد على السرعة. تقدم أنطوني وسفنه إلى المعركة بينما انتظرت كليوباطرة في الخلف. وعندما مني أنطوني بأولى خسائره ومال ميزان المعركة لصالح أوكتافيوس، وحين كان يتوجّب على كليوباطرة تقديم

العون السريع لزوجها، أبحرت بين الأسطولين المتناحرين وعادت أدراجها إلى مصر. وعوضاً من لملمة قواته، انتقل أنطوني إلى سفينة سرية ولحق بها. وفي نهاية النهار، استسلمت قوات أنطوني بعدما فقدت خمسة آلاف جندي.

لحق أنطوني بكليوباطرة لكنه كان غاضباً فما كلمها لثلاثة أيام متتالية، ثم قررا أن يموتا معاً إن عجزا عن أن يحيا معاً.

اضطر أوكتافيوس للعودة إلى إيطاليا لقمع عصيان في قواته ثم

الملك آرثر والملكة غوينيفير

يعترف معظم المؤرخين بأن الملك آرثر كان قائداً فذاً جمع القبائل المتحاربة تحت أمرته وطرد الأنغلو ـ ساكسون من بريطانيا ليعم فيها سلام يدوم ٥٠ عاماً. لكن كل الأساطير تجمع على رواية خبر زوجته غوينيفير وغوايتها من أحد فرسان الطاولة المستديرة، الفارس لانسلوت. هل هناك دليل يشير إلى حقيقة وجود هذين الشخصين وهذه الثلاثية الرومانسية؟ يبدو أن لانسلوت هو ثمرة خيال الشعراء الغنائيين في العصور الوسطى، استنبطوه ليكون طرفاً في القصص الآرثرية. فقد كانوا يعتمدون على روايات الزنا خصوصاً عندما تدخل النساء الفرنسيات الأرستقراطيات طرفاً في القصة. من ناحية أخرى، ممكن، فقط دون تأكيد، أن يكون وجود غوينيفير وزواجها من آرثر صحيحاً وحقيقياً. إذ في أحد أيام نيسان/ أبريل ١١٩١، بدأ الرهبان في دير غلاستونبوري تنقيباً حثيثاً في بقعة محددة بين صليبين حجريين طويلين منتصبين منذ زمن طويل في مقبرة الدير. أمر الملك هنري الثاني بهذا الحفر بعد أن شاع أن الملك آرثر مدفون هناك. وبعد أن وصل الحفر إلى عمق تسعة أقدام، أي أعمق من القبر الطبيعي، وصل الرهبان إلى صخرة كبيرة

إلى آسيا لتأديب الحكام الذين ساعدوا أنطوني ضده، وبعدها إلى الإسكندرية.

في آخر أيامه، تنسك أنطوني وعزل نفسه على إحدى الجزر، فاضطرت كليوباطرة إلى التحضير وحدها للدفاع عن الإسكندرية. تقدم أوكتافيوس، فكتب إليه أنطوني يذكّره بصداقتهما السابقة ويعده أن يقتل نفسه إن عفا عن كليوباطرة. لكن هذا تجاهل الرسالة، ورسالة أخرى من كليوباطرة تعرض فيها الإستسلام.

مدفونة في التراب، وعليها نقوش تؤكد «هذا مدفن الملك آرثر العظيم مع غوينيفير، زوجته الثانية». هذا ما يؤكده الكاتب غيرالدوس الذي زار الدير في السنة التالية.

تشجّع الرهبان واستمروا في الحفر والتنقيب. وحين وصلوا إلى عمق خمسة عشر قدماً، اكتشفوا وجود هيكل عظمي يعود لإنسان طويل القامة، يتجه وجه جمجمته إلى الشرق (هكذا كانت عادات الدفن المسيحية منذ القِدم) وإلى جانبه هيكل أصغر. تأكد للرهبان أنهم وقعوا على قبر الملك آرثر وزوجته غوينفير. وعندما حاول أحدهم أن يلتقط الشعر الأحمر الذي ما يزال هناك، سقط في القبر فأدى سقوطه والهواء الذي دخل القبر إلى تحول الشعر إلى غبار.

نقل الهيكلان بعناية في احتفال مهيب ودفنا ثانية قرب المذبح في الكنيسة الجديدة التابعة للدير. بعد ذلك، أمست هذه الكنيسة محجّة الناس خلال العصور الوسطى حتى دمرتها حركة الإصلاح الديني. بقي الصليب صالحاً للمعاينة والكشف إذ تفحّصه مؤرخون من القرن السادس عشر، لكنه اختفى بعد ذلك. إن ما وجده الرهبان في نيسان/ أبريل ذاك يؤكد أن آرثر وغوينفير وما بينهما لم يكن من بنات خيال الشعراء الغنائيين أبداً.

فالتجأت إلى ملجأ صنعته لنفسها مصطحبة كل ثرواتها وجواهرها مهددة أوكتافيوس أن تدمرها إن لم يقبل بالصلح والسلام المشرّف. عاد أنطوني إلى الإسكندرية وسمع أن كليوباطرة انتحرت، فطعن نفسه بالخنجر. وعندما أعلموه أنها لم تمت طلب أن ينقل إلى ملجئها. فوصله على الرمق الأخير ومات بين ذراعيها.

دخل أوكتافيوس إلى الإسكندرية، وسمح لكليوباطرة بدفن حبيبها ثم أخبرها بنيته نقلها إلى روما. حين قبلت ذلك، تركها حرّة طليقة. وقبل أيام من موعد مغادرتها إلى روما، وصل إلى بابها فلاح يحمل طبقاً من الصبّار، فأدخله الحرس. وبعد مغادرتها، رمت كليوباطرة الصبّار وانتشلت من قعر الطبق أفعى سامة. كتبت رسالة إلى أوكتافيوس ترفض فيها الإستسلام له ثم وضعت الأفعى على صدرها.

بموت كليوباطرة، تحولت مصر إلى مقاطعة رومانية غير مستقلّة.

٤

أبيلارد وهيلواز

بيتر أبيلارد واحد من المفكرين المؤثرين جداً في عصرهم. فقد أعجب به تلاميذه واعتبروه الفيلسوف الأعظم في العالم بفضل جاذبيته التي لا تقاوم. لكن أبيلارد كان يحزن كثيراً إذ هو مشهورٌ فقط بعشيق الحسناء أبيلارد.

كان بيتر أبيلارد ابن فارس بريتاني. وفي تلك الأيام، لقب فارس يساوي تكريس الحياة للحروب والمعارك، لكن بيلارد له تفكير مغاير يتناول العقلية العسكرية. فهو يفضل الإعتماد على العقل، لهذا أدار ظهره للفروسية والجيش وضحّى بتراثه ليسافر إلى فرنسا ليدرس الفلسفة.

قبل التوغل في قصة عشق أبيلارد، نحتاج إلى أن نعرف لِمَ تحوّل إلى مفكرّ مؤثر جدلي، وهذا يَتَطلّب بعض المعلومات حول الخلافات الكلامية بين الفلاسفة في أيّامه. في القرون الوسطى، كان ثمّة فيلسوفان عظيمان: أفلاطون وأرسطو. إعتقد أفلاطون بوجود حقيقةٍ غامضةٍ وراء هذا العالم. لكن تلميذه أرسطو كان

أقرب إلى التفكير العلمي المنطقي ونظر إلى هذا العالم نظرة عملية واقعية.

ثم أتى المسيح لتخليص البشر من خطيئة آدم، فأعلنت الكنيسة الكاثوليكية أنها مالكة الحقيقة دون غيرها. لكن، بما أن أفلاطون آمن بالحقيقة المطلقة، فيمكن اعتباره أحد أسلاف التعليم المسيحي. ولأن أرسطو اجتهد لترجمة تفاصيل هذا العالم عملياً، تعتبر فلسفته مبرراً للمسيحي الحقيقي كيما يفكّر بنفسه.

لكن ثمة مشكلة جليّة. فلقراءة نصوص أفلاطون وأرسطو، يحتاج المرء لاختبار وتمرين ذكائه. أليس ذلك تناقضاً مع التعاليم الكنسية القائلة إن الإيمان بالثالوث المقدس كافٍ للوصول إلى الجنة؟ إن رضيت الكنيسة أو أبت، شعر الأذكياء من الناس بالحاجة لاستخدام عقولهم، واستمر جدل الفلاسفة حول تقديم الإيمان على المنطق أو العكس. بالطبع، إن أصرّ فيلسوف على تقديم المنطق يحرق على الخازوق. ولهذا، تجادل الفلاسفة حول أفلاطون وأرسطو.. فهل كانا فعلاً فيلسوفين عظيمين؟

ما إن وصل أبيلارد إلى باريس حتى وجد نفسه غارقاً في هذا الجدل. انضم إلى الفيلسوف روسيلين يتتلمذ عليه، وكان هذا لا يطيق الافلاطونيين المقتنعين أن هذا العالم السفلي انعكاس لعوالم أخرى من الأفكار والأشكال. فعلى سبيل المثال، العالم مليء بالدوائر ابتداءً بالشمس والقمر وانتهاءً بالبرتقال والعملات المعدنية. وبحسب أفلاطون، كل الأشياء الدائرية انعكاسات لفكرة أو «شكل» يدعى التدوّر. وهذا الشكل موجود في عالم خاص به رفيقاته من الصفات الأخرى كاللون والحلاوة والمرارة وغير ذلك. وإن أراد نجار صنع طاولة ما، يجب عليه امتلاك فكرة هذه الطاولة

قبل أن يبتدىء بالعمل. بعبارة أخرى، فكرة الطاولة أهم من الطاولة الحقيقية.

عارض روسيلين هذا المقال معتقداً أن فكرة عالم وهمي من الأشكال وكأنه متحف خارق للزمن موجود في بعدٍ خامس فكرةٌ سخيفة منافية للعقل، ومؤكداً أن التدوّر فكرة تقترب من الحقيقية عند اتصالها بأشياء مثل العملات المستديرة والبرتقال. وافقه أبيلارد، لكنه كان متفتح الذهن فأصبح تلميذ أحد تلامذة روسيلين السابقين، ويليم من شامبور، الذي رفض تعاليم روسيلين. وبعد حين، ابتعد أبيلارد عن هذا المعلم بعد أن اقتنع أنهما يخطئان في الكثير من الأمور والتفسيرات. وبسبب ذلك، طُرد أبيلارد من باريس وأقام في مدرسته الخاصة في منطقة ميلان (Melun) على بعد أميال. وأكمل معركته ضد ويليم بإصرار حتى اعترف بالهزيمة، فانفضّ عنه تلاميذه وغادروه للإنضمام إلى أبيلارد.

حلُّ أبيلارد لهذه المسألة نموذجي فعلاً. رأى أن متحف أفلاطون الوهمي مناف للعقل، لكنه أكّد أن من السخافة أن يقال بعدم وجود مفهوم التدوّر منفصلاً عن الأشياء المستديرة. فالتدوّر شكل رياضي موجود إن وجدت أشكال مستديرة أو لم توجد. بعبارة أخرى، التدوّر فكرة منطقية حاضرة بغياب الأشياء المستديرة، لكن ذلك لا يؤيد أبداً فكرة عالم وهمي تعجُّ فيه الأشكال.

أعجب تلامذة أبيلارد بأفكار معلّمهم فاجتهدوا في تقليده. وفي العام ١١١٥ ميلادية، كان في منتصف ثلاثيناته فيلسوفاً مشهوراً في أرجاء أوروبا يسافر إليه التلاميذ من كل حدب وصوب يتتلمذون عليه. وفي ذلك الوقت وقع في غرام إحدى تلميذاته، هيلواز. كانت في السابعة عشرة من عمرها حين التقاها، أي



بيتر ابيلارو

تصغره بعشرين عاماً، ذكية وجميلة الوجه. توفي والداها وهي بعدُ صغيرة، ربّاها عمّها كانون فولبيرت في نوتردام.

لا يمكن الجزم إن كان أحبها فعلاً أو هو عجز عن مقاومة صبية حسناء ترى فيه صورة والدها. قد يكون شعر أنه يستأهل بعض

الملذات الدنيوية تعويضاً عن النشاط العقلي الهائل الذي يصرفه أثناء المناظرات الكلامية مع منافسيه وأعدائه، خصوصاً أنه لم يتزوج من قبل.

أفضل مقاربة لعلاقتهما موجودة في كتاب هيلين وأدّيل «بيتر أبيلارد» المستوحاة من يوميات ومذكرات الفيلسوف نفسه. لا شك في أن أبيلارد هو الذي أغوى هيلواز، ووجد الأمر سهلاً. فأول الأمر، كان وهيلواز يعيشان في بيت عمّها كانون فولبيرت. يفصّل أبيلارد كيف ابتدأ، ليلة بعد أخرى، يشبعها تقبيلاً، حتى بلغت شهوتهما حداً هو نقطة اللاعودة، فاتفقا على المضاجعة في الليلة التالية بغية أن يتحضّرا لذلك..

في صباح اليوم التالي، استيقظت على صوته يأمر خادمه غيبرت كي يحضر له أحد كتب اللاهوت، فالتفت بردائها القصير وخرجت من غرفتها. رآها أبيلارد هي على رأس السلم ورداؤها مفتوحٌ يكشف بعض مفاتنها فاجتاحه شبق عاصف.

وفجأة، عاجزة عن مواجهة فكرة أن تهب عذريتها، انتهزت فرصة قضاء يوم في دير أرجونتوي فخرجت إليه. وعندما عاد أبيلارد ولم يجدها، أصابه الجزع من انفضاح أمرهما، فخرج وراءها في الليل ليعود فجراً منهكاً إلى غرفته فيجدها بانتظاره... وفي إحدى الليالي التي تلت عيد الفصح، تسلل إلى غرفتها ينظر إليها في نومها. لم يستطع مقاومة رغبته في لمسها، فصحت ونظرت إلى وجهه الشاحب. اعتقدته مريضاً لكنه قال إنه مرعوب لفكرة افتراقهما، فأدخلته فراشها واستسلمت لقبلاته الحارة.

وفي الصباح الباكر، سمعا وقع خطوات على السلم، ثم انفتح باب الغرفة ودخل كانون فيلبيرت حاملاً قنديلاً. ما إن رآهما معاً

في الفراش حتى أصدر صوتاً حاداً وارتمى على الأرض مصاباً بنوبة قلبية متوسطة الحدة.

ترك أبيلارد منزل فيلبيرت الغاضب. واعتقد هذا أن افتراقهما يعني انتهاء علاقتهما المحرّمة. وبعد شهور قليلة، أدركت هيلواز أنها حامل، فحزن أبيلارد للورطة التي زجها فيها، وقرر أن يصطحبها إلى منزل أخته في بريطانيا حيث يستطيعان قضاء الصيف وتضع هي طفلها.

إكتأب فيلبيرت وأشرف على الجنون. وفي إحدى الليالي، انتظره أبيلارد على طريق عودته إلى المنزل وطلب منه السماح له بالزواج من هيلواز. ارتاح صدر فيلبيرت وفرح لهذا الطلب، فوافق فوراً. لكن أبيلارد صدم عندما رفضت هيلواز الزواج به إذ اعتقدت أنها بذلك تقضي على مستقبلها المهني. لكنها عادت واستجابت عندما أكد لها أبيلارد أن عمها سيحافظ على سرّية زفافها. رزقا بولد ذكر أسمياه أسترولابيوس، وتركاه في رعاية عمّته، وعادا إلى باريس. متنكرة بثياب رجل، رجعت هيلواز إلى منزل عمها، لتدرك أنه لم يفِ بوعده بالمحافظة على سرية زواجها. فبحضور رجلين من علية القوم صاح قائلاً إنه فخور أن تتزوج إبنة أخيه من رجلٍ عظيم - بيتر أبيلارد. فوجىء الرجلان بالخبر وقدما التهاني للعروسين. فأجابت هيلواز ببرود تام: «عمي مخطىء. فأنا لست زوجة المعلم بيتر، بل أنا عشيقته.»

حاول فيلبيرت أن يخنق إبنة أخيه لكنه وقع أرضاً إذ أصابته نوبة قلبية أخرى. لتجنب الفضيحة، انتقلت هيلواز إلى دير أرجونتوي، بينما بقي أبيلارد في باريس، مستقراً في منزل فيلبيرت. ازداد جنون العجوز، فحاول رشوة خادم أبيلارد بمئة قطعة ذهبية كي

يدسّ منوّماً في شرابه ويترك باب غرفته مفتوحاً. قبل الخادم المال لكنه عجز عن دسّ المخدّر في شراب معلّمه. على كل حال، ترك باب غرفته مفتوحاً وغادر المنزل. أجّر فيلبيرت ثلاثة رجال أدخلهم إلى غرفة الفيلسوف، فأمسكوا به وأخصوه.

أحسّ الخادم بتعذيب الضمير فأسرّ إلى إثنين من تلاميذ أبيلارد بسرّه. هبّا إلى منزل فيلبيرت، لكن الأوان فات، فوجدا معلمهما ينازع في فراشه المضرّج بالدم.

كان ذلك إنتهاء العلاقة الغرامية. فقرر أبيلارد أن يدخل سلك الرهبنة، واختارت هيلواز أن تترهبن أيضاً في دير أرجونتوي.

أكمل أبيلارد حياته يجمع الأعداء.فهو انتقد حياة الرهبان في الدير حيث هو، وألف مؤلفاً يظهر فيه التناقضات في التعاليم المسيحية سبّب له المتاعب الجمّة. ثم ازدادت متاعبه بعد وضعه كتاباً يتناول الثالوث المقدس، اعتبره الجميع كتاباً هرطوقياً.

فرّ من وجه الضغوط ومن خطو محاكمته أمام ملك فرنسا، والتجأ إلى دير في بريطانيا قضى فيه عشرة أعوام ثم تركه بعد أن أدرك نوايا أعدائه المصرين على قتله.

أمضى السنوات الباقية من عمره متنقلاً بين الأديرة يكتب مذكراته حتى كانت وفاته في ٢١ نيسان/ أبريل ١١٤٢. توفيت هيلواز في العام ١١٦٤، وجمع قبر واحد رفاتهما في مقبرة بير لاشيز الباريسية.

٥

تاج محل

«أفضّل لو أموت غداً إن علمتُ أن صرحاً عظيماً كتاج محلّ سيبنى فوق عظامي.» كانت هذه ردّة فعل إنكليزيةٍ فيكتورية عندما رأت قصر تاج محل.

بُني هذا القصر العظيم بين ١٦٣٠ و١٦٤٨، بيد إمبراطور المغل شاه جاهان تذكاراً لزوجته ممتاز محل، قبل أن يبادر هذا إلى ابتداء عادة قتل الأقارب التي أدّت إلى زوال حكم المغول.

كان شاه جاهان إبن الأمبراطور جاهاجير، تقلّد السلطة عام ١٦٠٥. وكان جاهنجير متمدناً يحب الفنون والفلسفة، لكنه مدمنٌ على الأفيون والكحول ككل المغل.وفي يومياته، أثبت كيف اعتاد شراب النبيذ منذ سن السابعة عشرة وانتقل منه إلى العرق الأقوى يعب منه عشرين كأساً في اليوم الواحد. وحين قام طبيبه بتحذيره أن موته أمسى قريباً إن هو استمر على هذا المنوال، خفف استهلاكه إلى ستة كؤوس من مزيج النبيذ والعرق، ثم أضاف إليها كميات كبيرة من الأفيون. وهذا يفسر نوبات الغضب التي تصيبه،



ممتاز محل التي بنى لها شاه جيهان قص تاج محل الشهير

فكانت إحدى ملذاته مشاهدة المحكومين بالموت تحت أقدام فيلة من شرفته.

كما كل المغول، كان جاهانجير الشاب شبقاً مهووساً بالجنس، فاحتوى حريمه على ثلاثمائة جارية. وعندما قضت الكحول والأفيون على شهوته الجنسية، ملّت الجواري حياة الحريم فكن يختلقن الأعذار الصحيّة لزيارة الطبيب الأنكليزي في القصر كي يحادثنه. ويروي هذا الطبيب كيف كانت النساء تخرجن اليد أو القدم المرجو علاجها من خلف الستار، وعندما يحاول إدخال يده لتحسّس الحرارة، كن يعضضن أنامله أو يضعن كفه على أثدائهن

العارية. كان مضطراً لإخفاء أي رد فعلٍ على ذلك إذ كان محطّ مراقبة دقيقة من المخصيين. أما هؤلاء المخصيون فلم يكونوا عاجزين أبداً، ولهذا كانت بعض الجواري يختلين بهم خائفات انكشاف أمرهن. إلى كل ذلك، كانت الأوامر تقضي منع مرور الخيار وبعض أنواع الخضار إلى دار الحريم لأسباب خاصّة.

وفّق جاهانجير تماماً في اختيار زوجته، إبنة الفارسي المفلس الذي وصل الهند بحثاً عن الثروة، فأمسى كبير وزراء الأمبراطور. تزوجت هذه الفتاة أولاً من أحد ضباط جاهانجير، لكنها ترملّت وهي بعد في الثلاثين. التقاها الأمبراطور في أحد الإحتفالات فملكته قلبه فوراً. تزوجها وأنعم عليها بلقب نور محل. كانت هذه شاعرة وفنانة ومصممة للأزياء وقناصة وحوش، وتحولت عائلتها إلى أكثر العائلات تأثيراً في الهند. تقلّد أخوها عسّاف خان منصب نائب كبير الوزراء. فكتب السفير البريطاني إلى الأمير شارلز ـ الذي سيصبح الملك شارل الأول ـ يبلغه أن الأمبراطور دمية بيد زوجته ورهن إشارتها.

رزق جاهانجير بأربعة أولاد. أكبرهم خوسرو، والثاني بارويز أدمن الكحول فقتله الأمير خورّان، الثالث، كان المفضل في نفس والده، فأسمى نفسه شاه جاهان. أما الرابع، شهريار، فكان ابن جارية ضعيفاً. دعمت الأمبراطورة موقفها بتزويج ابنتها من زواجها الأول بالأمير شهريار تحسباً لوصوله إلى العرش، وبتزويج إبنة أخيها نائب أكبر الوزراء بشاه جاهان. كان إسمها أرجوماند بانو، لكن شاه جاهان لقبها بممتاز محل. وبما أن زوجها بنى تاج محل لأجلها، فنشير إليها بلفظة تاج تصغيراً لكلمة ممتاز.

كانت الزيجات الملكية تهدف إلى المصاهرة بين العائلات دون أن تأبه لمشاعر الزوجين، لكن حسن الحظ قضى أن يغرم شاه

جاهان بتاج كما أغرم أبوه بنور محل. لكن تاج كانت أرق من أمها الأمبراطورة التي تحكم البلاد فعلاً من دار الحريم، فعاهدت زوجها على الأخلاص والحب وحسن النصح، وعبّر هوس حبه لها باستيلادها أربعة عشر طفلاً في تسع عشرة سنة، لم يعش منهم سوى سبعة.

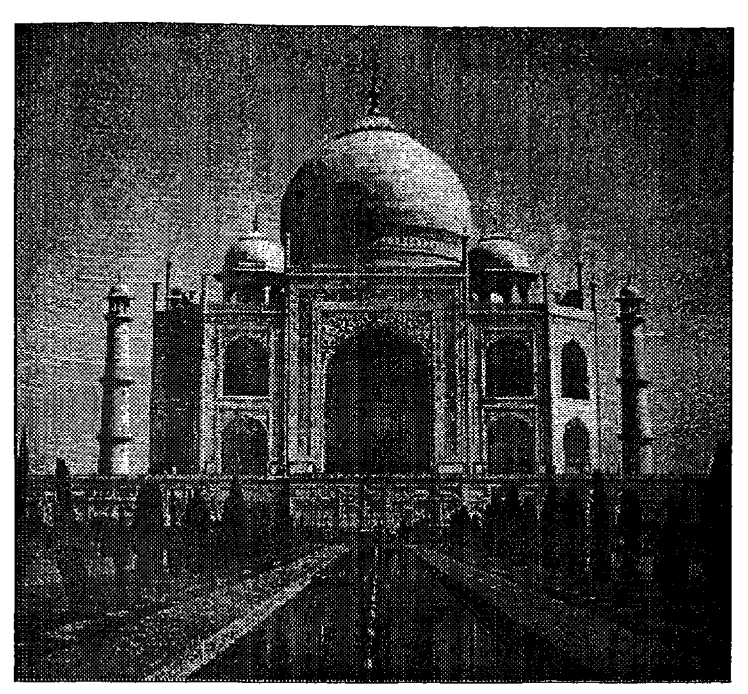
لم يكن شاه جاهان قد نصّب امبراطوراً بعد، فكانت أنظار أخيه خوسرو شاخصة على العرش، لكنه ملّ حياة البلاط خصوصاً إذ أدرك أن شاه جاهان هو المفضل عند أبيه. إنتهز فرصة زيارة قبر أكبر العظيم وفرّ من البلاط وابتدأ يجهز جيشاً حتى إذا ما انتهى حاصر لاهور، لكنه انهزم بيد عسكر والده القوي، وقبض عليه برفقة اثنين من المقربين منه. كان والده رحيماً معه فأجلسه على فيل واقتيد في الشوارع التي امتلأت جوانبها بالخوازيق المعلقة عليها الرجال أتباعه، ثم كُبّل بالسلاسل سنة كاملة.. أما المرافقان، فعذبا شرّ تعذيب.

لم يتعلم خوسرو مما حصل له ولم يعتبر، فشجع في السنة التالية (١٦٠٧) المتآمرين على قتل والده. انكشفت المؤامرة، فقتل المتآمرون وأحرقت عينا خوسرو ليصبح كفيفاً. وبذلك انطفأت آماله بخلافة والده في عرش الهند.

أمسى شاه جاهان ولي العهد الشرعي، ودعم موقفه بما أحرزه من انتصارات عسكرية إذ طوّع مملكة راجاستان القديمة بعد أن عجز والده وجدّه عن تطويعها، وقضى على الثوار عند الحدود الجنوبية بعد أن انتزع منهم كمية هائلة من الجواهر كجزية لحساب الأمبراطور. عاد من معاركه ليستقبل استقبال الفاتحين وليجد كرسيه إلى يمين عرش والده.

أثار ذلك حفيظة الأمبراطورة خصوصاً أن صحة زوجها تتقهقر بفعل إدمانه الكحول والأفيون. فمتى توفي، لم تعد أمبراطورة بل تأخذ إبنة أخيها تاج مكانها. استصعبت هذا الأمر وبدأت تخطط كي تؤمن لشهريار، زوج ابنتها، طريقه إلى العرش بدلاً من شاه جاهان. أدرك شاه جاهان كل هذه المخاطر لكنه عجز عن أي فعل، فوالده يهيم بالأمبراطورة، لهذا تستطيع أن تقلب والده عليه إن عاداها. أمل أن يكون قريباً من العرش حين يموت أبوه فيتولى مسؤولياته بسرعة . لهذا عندما أمره أبوه بالعودة إلى الديكان لقمع الثوار، استصدر أمراً من أبيه أن يرافقه أخوه الكفيف خوسرو، إذ كان هذا، برغم عماه، قادراً على اغتصاب العرش بفضل أصدقائه في البلاط. وعندما وصل وجحافله إلى الديكان، تراجع الثوار واستسلموا. سرّ والده وأرسل إليه الهدايا، فوصلت مع أخبار تدهور صحة جاهانجير وأنباء تحويل بعض أراضي جاهان شاه إلى أخيه الأصغر شهريار. فكانت ردة فعله قتل أخيه خوسرو وإرسال أخبار وفاته بسبب المرض إلى البلاط الملكي في أغرا.

وبعد زمن لم يطل، وصلت إلى الأمبراطور أخبار تقدم الفرس نحو قانداهار، المركز الهندي التجاري المهم، فجرّد حملة كبيرة وأرسل إلى إبنه شاه جاهان يستعجله للإنضمام إليه.. ولأول مرة، اختار شاه جاهان تحدي إرادة والده، فرفض الحضور إلا إذا كان قائد الجيش الأوحد. سرّت الأمبراطورة لهذه التطورات إذ يسهل عليها الآن اقناع جاهانجير أن ولده ثائر على إرادته وخارج عن طوعه. فتلقى شاه جاهان رسالة طيّها منعه من الدخول إلى حضرة والده الأمبراطور؛ حاول الاعتذار لكن الأوان قد فات، وأرسل جاهانجير أحد قواده، ماهابات خان، ليقبض على المتمرّد ويسوقه إلى المحكمة.



قصر تاج محل

طورد شاه جاهان وجيشه ثلاث سنوات، واستمرت أحواله تسوء. وحين أتعبه الفرار، بدأ يساوم على السلام. وافقه والده التعب من تدمير إبنه المحبوب، وخفف من حكمه عليه بأن جعله حاكماً على منطقة بالاغات النائية، ما يمحو كل آماله بخلافته على رأس الأمبراطورية. وأضافت الأمبراطورة بنداً على الحكم يقضي أن يرسل اثنين من أبنائه ليكونا رهينتين في البلاط ففعل.

أما في لاهور، فأمور غريبة كانت تحدث هناك. قلقت الأمبراطورة من صعود نجم القائد ماهابات خان الذي طارد شاه جاهان وبدأت تتحرك ضده، متهمة إياه بالخيانة. ونزولاً عند رغبتها، نصّبه الأمبراطور حاكماً على أقليم البنغال النائي. تظاهر

القائد بالرضى والقبول، وحضر إلى لاهور على رأس خمسة آلاف رجل، فدخل إلى فسطاط الأمبراطور وأجبره على مرافقته إلى مركزه.. أي اختطف الأمبراطور في وضح النهار. أمرت الأمبراطورة وأخوها بمهاجمة القائد، لكنهما هزما ووقعت الأمبراطورة وعساف خان أسيرين، لكن ماهابات خان أصرّ أن الجميع ضيوفه، وأطلقهم آجلاً وتوجه فوراً إلى شاه جاهان يتحالف معه.

توجه الأمبراطور إلى كشمير، فساءت حاله وتوفي في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٦٢٧. لو كان شهريار موجوداً هناك، لأعلنه عساف خان أمبراطوراً، لكن هذا كان في البنجاب ضعيفاً إثر الجرب الذي أصابه فأفقده شعر رأسه. أرسلت إليه الأمبراطورة تحضّه على تحضير قواته، بينما قام أخوها عساف خان بإعلان إبن خوسرو دادار بخش، أمبراطوراً، وسجن أخته لتدخلها في شؤون الدولة. وبعد ذلك، جرّد حملة ضد الأمبراطور شهريار وهزمه بسهولة. لكنه أدرك أنه اقترف الخطأ الأهم في حياته، فشاه جاهان المتحالف مع القائد ماهابات خان أقوى منه، فأرسل إليه يعرض ولاءه. كان ردّ شاه جاهان قاسياً إذ طلب اغتيال شهريار وداوار بخش وكل من قد يطالب بالعرش. نفذ عساف خان هذه الأوامر فعينه الأمبراطور الجديد شاه جاهان كبير وزرائه...

لم يكن ثمة ما يمنعه من قتل الأمبراطورة لكنه اكتفى بقتل من قتل ورصد لها ثروة طائلة برغم المتاعب التي سببتها له. وأخيراً، ارتاح باله إذ أصبح امبراطوراً واستقر له الأمر بعودة ولديه إليه بعد طول فراق، واعتقد أن شيئاً لن يعكر صفو حياته بعد اليوم. كان مخطئاً، إذ بعد أشهر، قامت الثورة في الديكان من جديد، ما

اضطره إلى الذهاب إلى هناك مصطحباً زوجته وأبناءه. وخلال الحملة، حملت تاج بطفلها الرابع عشر، وتوفيت في حزيران ١٦٣١ خلال عملية الوضع.

جن جنون الأمبراطور، فقد ربح العالم وخسر محبوبته الوحيدة. امتنع عن الطعام، وهام على وجهه سنتين مرتدياً الأسمال، غير آبه بالأعمال العسكرية التي استهوته. وأخيراً، عاد إلى رشده وشرع في بناء الصرح العظيم الذي أصبح لحد تاج، صارفاً الأموال الجمّة ومستخدماً عشرين ألفاً من العمال.

استمر حكم شاه جاهان، وارتكب هذا الأمبراطور الأخطاء التي وقع فيها أبوه من حيث تفضيله إبناً على آخر، وإبعاد البعض وتقريب آخرين من البلاط حتى اختلفوا فيما بينهم قبل موته عام ١٦٦٦. خلفه إبنه أورنجزيب بعد أن قتل معظم أخوته وافتعل المعارك الضارية. وبموته، انتهى حكم المغول في الهند.

٦

جاين ديغبي الرائعة

كانت جاين ديغبي مغامرة رومنطيقية إذ كانت الرومنسّية والمغامرات توأمين في حياتها وفي بحثها المجدّ عن الحب الحقيقي.

ولدت في العام ١٨٠٧، وكانت إبنة الأدميرال ديغبي واللايدي أندوفير. قضت معظم طفولتها في هولكهام هول سعيدةً لاهية تمتطي المهر وتجوب حرّة أرجاء الريف بصحبة أخويها. وأفاد أحدهما فيما بعد أنها كانت تحب المغامرات أكثر مما أحباها، فكانت تتسلق الجبال العالية وتمتطي الخيل سريعاً. وعندما بلغت العاشرة، قرر والداها أن هذه الحياة لا تناسب سيدة صغيرة من الطبقات العليا، وأحضرا مربية أطفال تدعى السيدة ستيل، فوجدت جاين طفلة ذكية تتمتع بتقبل سريع للغات وحب للأدب وثقة بالنفس. كانت جميلة الوجه زرقاء العينين وشقراء الشعر وطويلة القامة وذات نشاط عظيم لم ينقص مع تقدمها في السن.

وعندما بلغت السادسة عشرة، قدمت في البلاط الملكي مرتدية الساتين الأبيض والريش، فنالت الإعجاب. وبعد وقت قصير، خُطبت جاين تحضيراً لزواجها لإدوارد لاوز، لورد ايلينبوره الثري

الوسيم. فقد طلبها هذا الأرمل البالغ الرابعة والثلاثين من والدتها فاضطرت للقبول. أحد معاصري تلك الحقبة، إدموند أبوت، يقدم وصفاً لتلك الفترة: «لا بد أن اللورد ايلينبوره قد بهر بكل هذا اللون الزهري المحاط بالأبيض.» لكن حماسة اللورد خفت بعد ذلك إذ كان رجلاً بارد العاطفة يحصر اهتمامه بمستقبله السياسي، برغم أنه لم يكن محبوباً من الناس ومن العائلة الملكية لكلامه القاسي وثقل ظلّه وكبريائه المتغطرس وأنانيته.

كان الزواج فاشلاً منذ البداية، إذ كان ايلينبوره كارثة حطت على جاين المرحة والحيوية، وسرت شائعات تؤكد عجزه الجنسي. قبل أن ينتهي شهر العسل وجدت جاين نفسها وحيدة في منزلها اللندني. وفي العام ١٨٢٨، أثبتت جاين كذب الشائعات إذ أنجبت منه طفلاً ذكراً، آرثر، قرر أن يجعل منه رجلاً سياسياً مشهوراً.

بولادة الصبي، أمّن إيلينبوره لمستقبل ذريته فما أبه لزوجته وما استمع لاعتراضاتها وشكاويها وشكاوي والديها، فما كان منها سوى التأقلم مع هذا الجو المريع من جهة وقبول اطراءات المعجبين من جهة أخرى. فإن كان اللورد اختار ألا يأبه لزوجته الحسناء، فاللوم يقع عليه وحده. أصبحت جاين زبونة دائمة في صالونين اجتماعيين مهمين حيث التقت الأمير فيليكس سواتزينبرغ الواصل

صرف الملك لودفيغ الأول الكثير من المال بغية بناء ميونيخ وفق التصميم الإغريقي، متنقلاً بين أثينا وروما ليأتي بالتماثيل ونماذج الأبنية. كما أصرّ أن يتبع أطفاله سياسة شد الأحزمة، فكانوا يأكلون الخبز الأسود. وعندما طلب الملك البصل على مائدته، اعترض الطهاة إذ لا يمكنهم تحمل كلفته على نفقتهم الخاصة.

حديثاً إلى لندن لاستلام مهامه كسكرتير للسفارة النمساوية.

لم يتكلف واحدهما عناء إخفاء علاقتهما الغرامية. برغم انتشار الزنا في ذلك الوقت إلا أن السرية كانت واجبة. سرت الأقاويل والأحاديث حول لقاءاتهما المتكررة في منزله، وكيف كان يفك أربطة ثيابها، وحول زيارته لها في برايتون، زيارة بدأت وقت الشاي وانتهت عند فطور اليوم التالي. أدار إيلينبوره الأذن الصماء لهذه الأخبار ولم يفعل شيئاً، وهذا ما أضعف موقفه أثناء مفاوضات الطلاق التي حصلت آجلاً.

أصيبت عائلة جاين بالرعب وحاولت دفع زوجها إلى التحرك.. وبعجز هذا، بادر أبوها إلى سجنها في أحد أكواخ إيلغراكومب تحت أنظار المعلمة ستيلي. وهناك، اكتشف الجميع أنها حامل.

في هذه الأثناء، تعب الأمير من الذروة التي وصلها حبهما العاصف، فسافر إلى باريس يروّح عن نفسه. وحين وصلت إلى باريس، وجدت شمعة الحب في نفس عشيقها قد خفتت. وعندما أمعنت النظر في نفسيته، وجدته لا يعرف المثاليات ولا العواطف الحقيقية، إضافة إلى كونه كاثوليكياً يمنعه مذهبه من الزواج بمطلقة. اعترف سواتزينبرغ أنها من أجمل النساء اللواتي عرفهن لكن ينقصها الذوق، لكن الضيافة الدبلوماسية حتمت عليه أن يستقبلها في بيته. ارتادا الصالونات الإجتماعية الباريسية معاً، لكن سرت الأقاويل أنه يتركها في منزله ويذهب في غزواته النسائية. لم يقربهما ولادة طفلتهما، بل تحولت العاطفة التي جمعتهما إلى عبء ثقيل على كاهله، فما كان منه سوى المغادرة إلى الأبد.

كانت باريس في ثلاثينات القرن التاسع عشر مرتع شخصيات لامعة أمثال بيرليوز وشوبان ودولاكروا وبالزاك، أي كانت مدينة

احتفالية لا تخلو لياليها أبداً من الحفلات التنكرية الراقصة. عوّض هذا جاين فقدانها اهتمام الأمير بها، اذ استقبلها الكتّاب والرسامون والموسيقيون والفلاسفة الذين ما أعاروا سوء سمعتها اهتماماً أبداً. وكان هؤلاء الرومنطيقيون أكثر إثارة من كل تفاصيل لندن دون استثناء. لكن بعد زمن قضته في هذه الأجواء، قررت الإنتقال إلى مغامرات أخرى، فتخلت عن واجباتها الأمومية وتركت ابنتها لعائلة الأمير يربونها كما يحلو لهم من أجل أن تسافر حول العالم.

أدى وصولها إلى ميونيخ، عاصمة بافاريا، إلى قيام اضطرابات فورية. قدمت في البلاط هناك وأمست عشيقة الملك لودفيغ الأول. أضاف صورتها الشخصية إلى مجموعة لوحاته التي تصور النساء الفاتنات اللواتي عرفهن. وشجعها على تعلم مبادىء النحت والرسم واللغة الإغريقية الكلاسيكية. هالها أن تكون عشيقة الملك فكتبت في مذكراتها: «طبيعي أن أعتبر الحب هو الكل، بدونه الحياة فراغ.. فأن أُحِب وأُحَب هو الهواء الذي أتنفس..»

وبينما كانت تتنزه على حصانها التقت البارون كارل ـ ثيودور فينينجين الثري والنبيل. وبعد زمن لم يطل أمده، تقدم عارضاً الزواج بها. ترددت جاين إذ أن ذكريات الحب الأول لا تمحى بسرعة. أرسل والداها الرسائل يرجوانها القبول. كتبت إلى الملك قائلة: «أعتقد أن الحب ليس ضرورياً للزواج. لا عيب أبداً في سلوك البارون لكنني لست أحبه.» ثم قبلت عرضه وتزوجا. في ميونيخ، اعتقد البعض أن هذا الزواج كان مدبراً إذ لم يكن يريد لإبنه أن يعيش دون عائلة مجتمعة، لكن المولود كذب اعتقادهم إذ أتى صورة طبق الأصل عن البارون.

انتقل الزوجان إلى جزيرة صقلية وعاشا سنتين هانئتين تحت

الشمس الرائعة. وعندما أنجبا طفلهما الثاني، قررا العودة إلى ممتلكات العائلة في ميونيخ. لكن الملل تسلل إلى حياة جاين إذ رأت في الحياة الزوجية عبودية وقيوداً تمنعها عن المغامرات وأكدت في مذكراتها أنها تحب زوجها وتحترمه كثيراً لكن سوء تعبيره عن حبه لها يخفف من الشهوة التي قد تراودها.

في غضون ذلك، توّج أوتو، ابن لودفيغ، ملكاً على اليونان، وانفتحت التجارة بين النمسا واليونان. أكثر اليونانيين الواصلين إلى ميونيخ جاذبية كان الكونت سبيريدون ثيوتوكي، فالتقته جاين في إحدى الحفلات الراقصة وانجذبت إليه كما انجذب إليها.

وبعد ذلك بقليل، غادر البارون وزوجته وولداه ميونيخ إلى أراضيهم في بادن، فتبعهم ثيوتوكي واستقر في هايديلبيرغ المجاورة. كانت لقاءاتهما تحصل في البرية والغابات، تعود منها جاين إلى المنزل عند المغيب. استمر البارون في أعماله دون أن تساوره أي شكوك أبداً. رجاها الكونت الإغريقي أن ترافقه لكنها وجدت الأمر صعباً جداً. وعندما كان الجميع مدعوّين إلى حفلٍ على شرف ملك بروسيا، تنبّه البارون لغياب الكونت وجاين فلحق بهما حتى كشف أمرهما. دعا الكونت إلى المبارزة وجرحه منذ الضربة الأولى، فوقع أرضاً ينازع وينزف دماً على حضن جاين الباكية.. ثم رفع بصره إلى البارون وأقسم له أن شيئاً يمس كرامته لم يحصل أبداً.. صدّقه البارون وأمر بنقله إلى بيته حيث اهتمت بطبابته جاين نفسها حتى بدأ يتعافى.

وقعت جاين في حيرة إذ توجّب عليها الاختيار بين رجلين يحاولان التصرف بنبل زائد، لكنهااختارت أخيراً قلبها وعاطفتها. رضي البارون بهذا الاختيار بعدما تأكد له متانة الحب الذي يجمع

جاين بالكونت الإغريقي. فكتب إليها: «أتمنى أن تجدي السعادة التي اجتهدت كثيراً لكي أهبكِ إياها، فأنا ما أحببت سواك بكل جوارحي. قد أحظى بأصدقاء، أو بعشيقات، لكني لن أحظى بجاين أخرى.»

غادرت جاين وثيوتوكي إلى باريس حيث عاشا بهناء سنوات عديدة، لكن الحزن لم يغادرها بسبب إحساسها بالذنب إزاء الألم التي سببته للبارون، فبقيت على اتصال به حتى نهاية حياتها، حتى بعد طلاقهما. تزوجت من الكونت اليوناني، وغادرا باريس إلى كورفو، مسقط رأسه، حيث رحّبت عائلة الكونت بجاين. هنا، أحست بالسعادة في هذه الأرض الجميلة التي يحيط بها البحر وتكسوها الأشجار وأشعة الشمس. أنجبت طفلاً أسمته ليونيداس وكرّست حياتها لتربيته. كتبت رسالة لأخيها تخبره عن سعادتها وهنائها في هذه المنطقة من العالم قائلة إنها قادرة على قضاء حياتها الباقية هنا دون ترحال لكن ذلك لم يحدث. فعندما عيّن الكونت ثيوتوكي مساعداً ميدانياً للملك أوتو، اضطرت العائلة للإنتقال من نعيم كورفو إلى جحيم أثينا. وبما أن أثينا عاصمة الدولة المليئة باللهو، وبما أن جاين امرأة جذابة جداً، تحلّق حولها المعجبون. وكذلك كان الأمر بالنسبة للكونت ثيوتوكي الوسيم. إضافة إلى ذلك، هام الملك أوتو بها كما حصل لوالده، فاغتاظت الملكة أميلي خصوصاً بعد أن سلبتها الكونتيسة إعجاب الشعب. فعندما تخرج جاين إلى الشارع يحتشد حولها الناس وينادونها بلقب «ملكة الحب والجمال.»

في المنزل، أمست حياة الكونت والكونتيسة منفصلتين، ثم حصلت التراجيديا الحقيقية في حياة جاين حين كانت في إيطاليا.

فعندما أراد ليونيداس الصغير النزول إلى الطابق السفلي ليرحب مع والدته بضيوفهم، زلّت قدمه ووقع من أعلى السلم الرخامي ليصل ميتاً إلى تحت قدميها. لم تُشفَ أبداً من صدمة خسارته، كما انهار زواجهما نهائياً.

وبعد فترة طويلة من السجن الاختياري داخل المنزل، قررت جاين العودة إلى أثينا وحيدة منفصلة عن ثيوتوكي. فعاشت هادئة ترافقها خادمتها الفرنسية المخلصة أوجيني التي انضمت إليها منذ أيام باريس.

أثينا القرن التاسع عشر كانت مدينة حديثة، إذ تحولت من بلدة تعتمد صيد الأسماك إلى مدينة عالمية بأبنية حديثة كلاسيكية وأفكار هي خليط فلسفتي الشرق والغرب، وأعراق جديدة مثل عرق البلغاريين أي الألبان المرتزقة الذين قاتلوا خلال حرب الإستقلال. كان هؤلاء مزاجيين خطرين، فأراد الملك أوتو إرضاءهم، ولهذا نصب زعيمهم الجنرال كريستودولوس حاجي بيتروس مساعداً ميدانياً مكان ثيوتوكي. كان حاجي بيتروس هذا رجلاً طويلاً جداً ضخم الجسد مدججاً دائماً بالمسدسات والسيوف والخناجر، ويرتدي اللباس الألباني الأحمر المذهب. كان في الستين من عمره لكن وسيم تعشقه النساء، حتى تداول البعض أن الملكة تحاول استمالة قلبه.

تعرفت جاين بهذا الرجل من طريق ابنه. فكان هذا بعمر ليونيداس لو كان عاش، فتعلقت به وأحبته. وبعد زمن قصير، سألها حاجي بيتروس أن ترافقه ورجاله إلى حيث يقيمون في الجبال الوعرة. وبما أنها لا ترفض عرضاً فيه تجارب جديدة قبلت عرضه ورافقته على صهوة جوادها في ممرات الجبال القاسية والوعرة

تشاركه المغامرة والطعام والخيمة. أحست أنها حيّة الآن أكثر مما كانت في الحياة الزوجية.

وعندما بدأت تحضر لطلاقها من ثيوتوكي لتتزوج البربري هذا، ضربت الملكة ضربتها إذ اقنعت الملك أن يقيل حاجي بيتروس. أرسل حاجي رسالة إلى الملكة يخبرها فيها أنه لا يحب جاين بل يريد الإفادة من مالها إذ هي غنية وهو فقير، وعليه أن يعيش حسب مستوى إجتماعي معين. سارعت الملكة إلى نشر الرسالة لكن جاين لم تتأثر بذلك أبداً لكرم النفس الذي تتمتّع به. بل أمرت باستئجار منزلين مجاورين، الأول سكنته وأوجيني، والثاني لحاجي بيتروس ورجاله.

نفد صبر الخادمة أوجيني من تصرفات الرجال البربرية إذ كانت تشارف على التعرض للإغتصاب في كل يوم، فأعلنت ذلك صراحة لسيدتها التي وافقتها. وفي إحدى الليالي، وضبتا حاجياتهما وأختفتا دون أي أثر.

أبحرتا إلى سوريا إذ لم يكن ممكناً العودة إلى لندن بعد أن تسببت بغضب عائلتها. وحده أخوها بقي يراسلها ويطمئن إلى أخبارها. على كل حال، أرادت الابتعاد عن أصداء ماضيها، فانكبت على زيارة أطلال تدمر الأثرية. لم يرق للقنصلية البريطانية في سوريا أن تقوم السيدة ديغبي بأسفارها الخطرة في البادية إذ كانت القوافل هناك عرضة لهجوم أفراد القبائل البدوية. لم تقنع هذه الحجة جاين في العودة عن قرارها، فما كان من القنصل إلا أن عيّن لها دليلاً يسافر معها، فكان يدعى الشيخ عبد المجّل المزراب وينتمي إلى قبيلة محترمة وقوية مركزها قريب من تدمر. كتبت جاين في مذكراتها: «قلبي ينفتح لهؤلاء العرب. ففيهم خصال

نفتقدها في حياتنا المتمدنة، كالضيافة الكريمة واحترام الغريب والإيمان القوي والبساطة والتواضع والكثير من اللباقة والأدب.»

لم يندهش القنصل عندما علم أن قافلتها تعرضت لمتاعب بعد أيام من ابتداء رحلتها. تصف جاين ما حصل لها في رسالة إلى أخيها، فتروي: «فجأة في نور المساء، أقبل علينا رجال أشرار يصرخون ويلوحون برماحهم في الهواء. فرّ معظم مرافقي إلى الصحراء، لكن عبد المجل وحده وقف أمامي يدافع عني بشراسة بانت في عينيه وأبعدت هؤلاء الأشرار الذين عادوا على أعقابهم فارين». قد يكون المهاجمون من قبيلة عبد المجل نفسها اعتقدوا أن لا من يدافع عن هذه المرأة الغريبة فيسهل عليهم سرقتها واقتسام الغنيمة. وعندما اصطدموا بمقاومته الشرسة أدركوا أنه مخلص جداً لهذه الغريبة فابتعدوا.

يبدو أن عبد الجليل كان مبهوراً بجاين منذ البداية، لهذا أخذ يعلمها طرق الصحراء ومواضع الواحات وكيفية صيد الذئاب المفترسة.

عادت إلى دمشق وقررت الإستقرار في أحد منازل الأحياء العربية ترافقها أوجيني. لكن عليها أولاً العودة إلى أثينا. بقيت هناك وقتاً يكفي لتنال الطلاق من ثيوتوكي ولتصد عروض حاجي بيتروس المتكررة، لتعود بعدها إلى الشرق مديرة ظهرها للغرب كله. كانت جاين المرأة الثانية التي تصل سوريا من أوروبا بعد اللايدي هيستير ستانهوب. انكبت على دراسة اللغة العربية وتحضرت لرحلات استكشاف المجهول برغم اعتراضات القنصل البريطاني المستمرة. في رحلتها الثانية، وظّفت دليلاً جديداً. أحست أن هذا البلد القاسي هو الوطن الذي طالما بحثت عنه طول

حياتها، إذ اكتسبت هنا نشاطاً وحيوية. كتبت في مذكراتها: «سافرت مراراً على طريق القوافل بين حلب وبغداد ووجدت كتابات يونانية محفورة على إحدى الصخور. شاهدت قبوراً قديمة في بتراء ووجدت شبهماً على ضفة دجلة. كم ستكون هذه الرحلة جميلة إن رافقني فيها شخص أحبه فعلاً يقدر التصافي بهذه الأرض..»

وفي طريق عودتها إلى دمشق، التقت عبد المجل الذي أهداها فرساً، «فرأيت في عينيه كلاماً كثيراً لم يتفوه به.» رافقها إلى المدينة حيث اكتشفت فيه كل الصفات التي تبحث عنها في الرجل. وعندما عرض عليها الزواج، قبلت فوراً دون تردد. تكتب: «إنه رجل رائع.. إني في السابعة والأربعين لكني وقعت في الغرام وكأني فتاة صغيرة.»

صعق القنصل البريطاني بهذا الخبر، فأرسل رسالة يائسة إلى عائلتها في انكلترا يرجو فيها انقاذها من سوء المصير. عارضت عائلة عبد المجل الزفاف أيضاً لاختلاف الأديان، لكن العقبات تمّ تجاوزها وتزوجا وفق الشريعة الإسلامية على يد مسؤول تركي. «اتفقت وعبد المجل أن يحتفظ كل منا بديانته الخاصة، وأن لا يحاول اقناع الآخر بالتحول.. وعلى أننا سنقضي نصف السنة في البادية ونصفها الآخر في بيتي الدمشقي.»

قررت أن تعيش كبدوية حقيقية، فغطت أجفانها بالكحل

> **الحب الحقيقي شبيه بالشبح: الكل يتكلم عنه لكن قلة عرفوه عن كثب.**
>
> **لاروشفوكو**

العربي واعتادت ارتداء الأثواب البدوية وحلب النوق. قدّر العرب كثيراً فروسيتها وقدرتها على تطبيب الخيول، كما سرعة تعلمها الصيد بواسطة الصقور. أطلق عليها رجال القبيلة لقب «أم اللّبن» لبياض جلدها، كما قدموا لها كل الاحترام لما أظهرته من شجاعة وصلابة في القتال حين رافقت زوجها ورجال القبيلة في إحدى غزواتهم على ديار قبيلة معادية.

لا يمكن القول إن عبد المجل تزوجها طمعاً في مالها إذ بقي مستقلاً عنها مالياً، ولم يقبل منها مساعدة مالية إلا عندما قدمت المال من أجل شراء أسلحة حديثة للقبيلة.

وفي العام ١٨٧٢، بعد معركة صحراوية شرسة، نشرت الصحف خبر مقتل جاين إذ كانت قد اشتهرت في الشرق كما كانت مشهورة في الغرب. لكن الخبر كان خاطئاً إذ عادت إلى دمشق منتصرة يرافقها عبد المجل، وفرحت لقراءة نبأ موتها في الصحف.

عادت جاين إلى بريطانيا بعد غياب عنها دام ثلاثين عاماً، لتسوية أوضاعها المالية وتكتب وصيتها، عاشت مع زوجها هانئة متمنية لو أنها التقته باكراً في حياتها.

في ١١ آب/أغسطس ١٨٨١، توفيت جاين ديغبي المزراب بعد نوبة زنطاري، وإلى جانبها زوجها عبد المجل. وأثناء الدفن، وصل على صهوة فرسها ليلقي عليها نظرة الوداع ثم يقفل عائداً إلى البادية.



٧

ريشارد وإيزابيل بورتون

حين كانت إيزابيل أروندیل في منتصف مراهقتها، انتقلت عائلتها إلى منزل ريفي في إسيكس بغية توفير المال اللازم لادخال إبنتها في المجتمع اللندني في العام التالي. شعرت إيزابيل أن ذلك سوف يحدّ من حريتها، فصرفت الوقت تحلم وتلهو في أرجاء الغابات الريفية وتقرأ الكتب في المكتبة. وحين وقعت على مؤلف (Tancred) للكاتب ديسرائيلي الذي يروي رواية فتاة أرستقراطية وصلت إلى درجة الإشباع الروحي في البادية العربية، بهرت فيه وقرأته مراراً وتكراراً. امتلأت أحلام يقظتها بالخيم البدوية وليالي الصحاري المقمرة وبالبدو طويلي القامة داكني الشعر والعيون.

وحين التقت في إحدى الغابات بمخيم للغجر، لم تستطع مقاومة رغبتها بقضاء الوقت هناك، والتعرف إلى هؤلاء الناس إذ جذبتها رومنسيتهم، ارتعب أهلها لهذه الفكرة لكنها لم تأبه لهم قط وأخبرتهم أن حياة الغجر هي الحياة التي تستهويها.

وفي اليوم المقرر لمغادرتها إلى لندن، استطلعت عرافة غجرية غيب مستقبلها: «ستعبرين البحر وتكونين في البلدة نفسها حيث

قسمتك ولا تعرفين. ستقف بوجهك كل عقبات الدنيا وكل الظروف الصعبة، فتضطرين إلى شحذ طاقاتك كلها من شجاعة وحيوية وذكاء من أجل تجاوزها. ستركزين نظرك في نجمك القطبي فتلحقين به دون نظر يمنة أو يسرة. سوف تلدين إسم قبيلتنا وتفخرين بذلك... حياتك مليئة بالتبدلات والمغامرات. روحان حلّتا في بدن واحد لا يفترقان في الحياة وفي الموت.. أخبري بذلك الرجل الذي ستتخذين زوجاً.»

كانت تلك نبوءة غريبة بالنسبة لفتاة تنتسب إلى عائلة كريمة تتصل بإيرل أرونديل، سليل عائلة أرونديل الكاثوليكية المؤمنة. وقد ولدت إيزابيل عام ١٨٣١ من والد هو أفقر أفراد هذه العائلة، يدير مصنعاً للنبيذ. ترعرعت إيزابيل على يد المربيات الصالحات، فتشربت منهن الأخلاق الحميدة والخصال الصالحة. لكن حين أمست حالمة صعبة المراس قلقت والدتها. لكن لا مبرر لقلقها، فابنتها لامعة جداً بضفائرها الشقراء ووجهها المحبب، وكانت محط إعجاب الكثيرين من الشبان العازبين الباحثين عن زوجة مشرّفة النسب. لكنها رفضت من تقدم طالباً الزواج بها برغم الترجي الذي بذلته أمها. كانت تحلم بفارس الأحلام وتدرك أنها لن تلتقيه في حفلات الأزياء ولا في عروض الأوبرا. أوردت له وصفاً في مذكراتها: «طوله ستة أقدام، جسمه صحيح، منكباه عريضان، صدره معضل، قوي كهرقل، أسود الشعر حنطي القسمات عريض الجبين واسع العينين طويل رمشها. إنه جندي

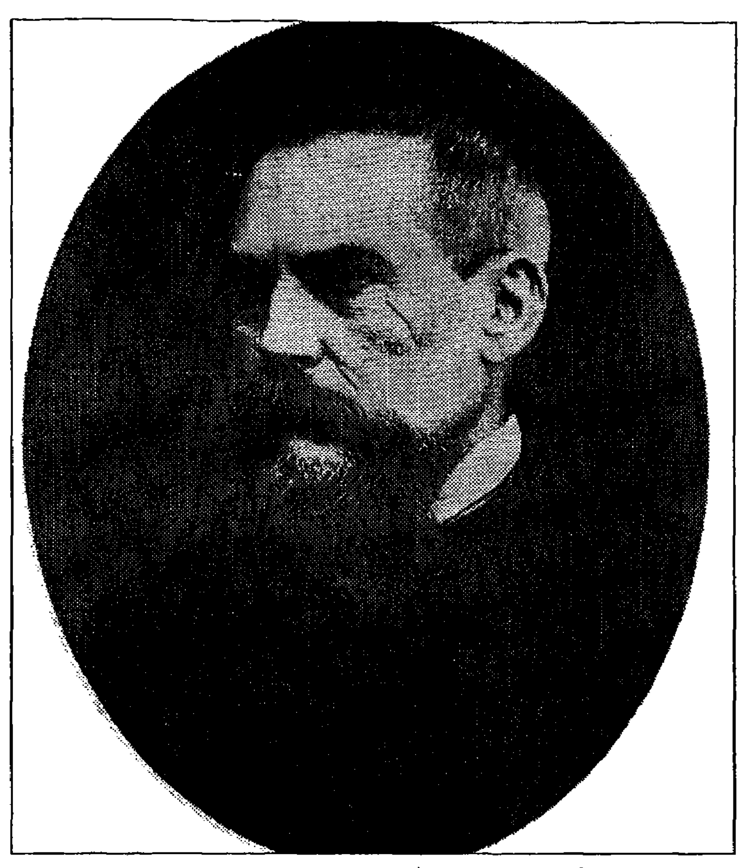
الحب رياضة يضطر فيها الصياد إلى التخطيط من أجل ملاحقة فريسته.

ورجل في آن، يعرف الأمر والطاعة. دينه من ديني، واسع الآفاق معتدل ليبرالي.» أليس ذلك السوبرمان الذي تحلم به كل فتاة حتى في عمرنا هذا.

حين انقضى الموسم دون أن تتزوج إيزابيل، انتقلت بها العائلة إلى مستعمرة بريطانية في بولون مدة سنتين حيث العازبون كثرة والمعيشة رخيصة. قضت وقتها ضجرة من تلك الأحاديث حول الشاي والنزهات القصيرة، على شاطىء البحر. وفي أحد الأيام، بينما كانت في نزهاتها اليومية برفقة أختها، صادفت إيزابيل قسمتها ونصيبها، إنه ريشارد بورتون. فقد عاد لتوه من الخدمة العسكرية في الهند، وكان بعد عازباً وهو في الثامنة والعشرين طويل القامة داكن البشرة واسع العينين تماماً كما بطل أحلام إيزابيل. وحين نظرت إليه، رماها بنظرة ساحرة إذ كان خبيراً في حقل التنويم المغناطيسي. لم تشك لحظة أن هذا الرجل هو الذي أشارت إليه العرافة هاجار بورتون. وعندما ابتعدتا عنه قالت لأختها، «ذاك الرجل سيتزوجني.»

في اليوم التالي، التقيا ثانية في المكان نفسه. لكنه في هذه المرة كتب ملاحظة على الحائط: «أيمكنني محادثتك؟» فالتقطت الطبشورة وكتبت «كلا فسوف تغضب أمي.» وعندما رأت أمها الكتابة ـ وكانت تمشي خلفها ـ غضبت فعلاً.

بعد أسبوع، عرفت إيزابيل اسمه، فتأكد لها ما قالته العرافة ذلك اليوم. ثم التقته في حفل راقص، فراقصها مرة وحادثها مراراً. وفي الأيام التالية، ذهبت مراراً إلى المكان عينه بغية أن تسترق منه نظرة أو كلمة. وتكتب في مذكراتها: «في كل مرة كنت أشعر بالحرارة تعلو فتهبط، ويصيبني الدوار والإرتعاش.» لاحظت والدتها



الكاتب والرحالة الانكليزي السيد ريتشارد بورتوت

هذه الأعراض فاتصلت بطبيب ردّ ذلك إلى سوء هضم ووصف دواءً رمته إيزابيل في موقد النار.

لكن ريشارد أخذ يتجاهلها حتى أمسى لا يذكر أنه التقاها منقبل، فقد كان مشغولاً بأمور أخرى كالكتابة وركوب الخيل وتعلم اللغات الأجنبية إذ كان يخطط مرحلة استكشافية إلى مكة المحرّمة على غير المسلمين. فلم تلتقه إيزابيل إلا نادراً قبل أن تعود العائلة إلى لندن.

انتظرت إيزابيل أربع سنوات بفارغ الصبر، مقتنعة تماماً أن بورتون هو قدرها وأنه سيعود يوماً. هذا غريب فعلاً إذ لم تتلق يوماً منه رسالةً، لكن إيمانها الكاثوليكي أمدّها بقوة الإنتظار، حتى إنها نصّت في مذكراتها: إن لم نتزوج، سيجمعنا الله في العالم الآخر. فنحن ننتمي لبعضنا.»

تجاوزت إيزابيل الواحدة والعشرين واستمرت، برغم غضب عائلتها، في رفض الشبان المتقدمين للزواج منها، وثابرت على قراءة (Trancred) وكل ما كتب بورتون «صيد بالصقور في سهل إندوس» و «جاتيو السند»، وغير ذلك. تابعت كل أخباره يوماً بيوم حتى أمست أخصائية بحياته وسيرته.

ولد ريشارد بورتون في توركاي، ديفون عام ١٨٢١ من والد ضابط في الجيش. عاش وعائلته في فرنسا وإيطاليا لانخفاض تكلفة المعيشة هناك. أخذ هو وأخوه يمتطيان الجواد في السهول ويدخنان التبغ ويقامران في الحانات، فقرر أبوهما إرسالهما إلى جامعتين مختلفتين وذلك لفصلهما الواحد عن الآخر. أرسل ريشارد إلى أوكسفورد لكنه لم يعمّر فيها طويلاً إذ طرد منها لعدم انتظامه وفق أنظمتها. وبينما كان هناك، اتقن اللغتين العربية والهندوسية. وبعد طرده، انضم إلى الجيش ونُقل إلى سرية بومباي.

وجد ريشارد أن الهند هي البلد الذي حلم أن يعيش فيه كل حياته. فقد بهره المكان والناس لكنه صدم عندما أدرك أن عصر الحروب انتهى. فالأفغان قد انتهى أمرهم إلى الأبد. فصرف همّه على دراسة اللغتين الفارسية والبنجابية إضافة إلى لهجات هندية متعددة. تتلمذ على الغورو الهندوس وتعلم من رفاقه الهنود في السرية رقصة السيف والمصارعة والحرب من على ظهر الفرس،

ومن عشيقاته الهنديات رقة المعاشرة الشرقية، ومن الأسواق كيف التعامل مع الأفاعي وكيف القيام بالسحر.

أعجب رؤساؤه بإنجازاته لكنهم تضايقوا من سلوكه الغريب. وبرغم ذلك كلفوه في مهام استخباراتية نجح في تأديتها على خير ما يرام. لكن إحدى هذه المهام أدت إلى ختام حياته العسكرية. فعندما أرسل للتأكد من حسن إقفال دور الدعارة الشاذة في بومباي - ولم يكن مقبولاً وجودها في ظل الحكم البريطاني الفيكتوري - عاد بتقرير تفاصيله مقززة جداً لم يتمكن الضابط المسؤول من إكمال قراءته. فصدر الأمر بإقالته من مهامه وإعادته إلى لندن.

بادر فوراً إلى زيارة عائلته في بولون وألف أربعة كتب تناول فيها الهند. كما أخذ يضع الخطط لرحلات استكشافية تطال مناطق العالم البعيدة كالصين والتيبيت وجنوب أميركا وأفريقيا. وعندما راقص إيزابيل أروندیل، لم يدرك أبداً أنها قدره وهو قدرها. فعندما التقاها، كان مشغول الفكر بالرحلة الأخطر في حياته: التخفي في ثياب عربي لزيارة مكة المكرمة. وافقت الجمعية الملكية للجغرافيا تمويل رحلته فبدأ يؤقلم نفسه مع شخصيته الجديدة، حتى إنه تحول للإسلام وفضّله على المسيحية. وفي العام ١٨٥٣، انطلق إلى الجزيرة العربية بزي افغاني مسلم، فوصل القاهرة ثم السويس فمدينة يثرب حتى انتهى مطافه في مكة المكرّمة، ليعود بعد سنة كاملة فينكب على نشر كتابه «حج إلى المدينة ومكة» الذي أذاع صيته.

في غضون ذلك، صلّت إيزابيل ليعود سالماً وأخذت تخطّط كيف ستلتقيه حال عودته. لم تندهش أبداً لذيوع شهرته فلطالما

علمت أنه غير البشر الآخرين، لكنها كانت بعد بعيدة من أن تصبح زوجته. هالها أن تعرف أنه قرر الرحيل في رحلة أكثر خطورة هدفها مدينة إسلامية أخرى تنبذ غير المسلمين: مدينة هارار في أرض الصومال. فقد كانت هذه مركز تجارة الرقيق في أفريقيا الشرقية، ولهذا السبب لم يدخلها رجل أبيض وخرج منها حياً. تزيّ ثانية كعربي ثم دخل المدينة حيث استقبله أمير قبل أن ينضم رفيقاه البريطانيان سبيك وسترومان خارج الأسوار. لكن خيمتهم تعرضت لهجوم ٣٥٠ محارباً صومالياً قاس فقتل سترومان وأصيب بورتون بندبة في وجهه رافقته طوال حياته. وعندما عاد إلى لندن، ازدادت شهرته.

خلال شهور قليلة، وبعد تدوين تجاربه ودعوته الحكومة لقمع تجارة الرقيق، عاد إلى المغامرة ثانية وشارك في الحرب الكريمية. وعندما وصلت أخبار غزواته النسائية في حريم البوسفور، أصيبت إيزابيل بالكآبة.

وفي إحدى سباقات الخيل، التقت إيزابيل بهاجار بورتون العرافة فطمأنتها أن قضاءها وقدرها قريباً. وكانت على حق. ففي شهر آب/ أغسطس، كانت إيزابيل وأختها تتنزهان في إحدى الحدائق عندما التقتا بريشارد، فعرفهما فوراً وتوقف يحادثهما. تكررت اللقاءات فعلم أنها قرأت كتبه كلها وعرفت كل تفاصيل رحلاته وإستكشافاته. لم يضع وقتاً وتقدم طالباً يدها للزواج وسألها التفكر جيداً قبل أن تردّ جواباً. فأجابته فوراً: «لا أريد التفكير.. فقد فكرت كفاية طوال خمس سنوات. إني موافقة.»

لكن ثمة عقبات بعد لم تزل، وذلك حسب نبوءة هاجار. حين زار ريشارد بورتون منزل أرونديل، لم يرق لوالدة إيزابيل. فقد

اعتبرته ملحداً مغامراً. ولو علمت بنية ابنتها الزواج منه لأصابتها دون أدنى شك نوبة قلبية.

وبعد أن أمنت إيزابيل حبّه لها، قلقت من اعتبار زواجهما غير ديني فقد كان مهتماً بالديانات الهندوسية وبالإسلام والبروتستانتية والكاثوليكية وبديانة السيخ، لكنه اعتقد الكاثوليكية «لا تصلح لرجل في العالم بل لرجل منتقل إلى العالم الآخر.» أما إيمانها الكاثوليكي،فلم يكن قوياً بالكامل إذ كانت تمزجه بالاعتقاد بالسحر والأرواح ونبؤات الأحلام. ففي ليلة أتاها ريشارد في المنام يودعها. وفي الصباح وجدت رسالته على الطاولة وفيها أنه غادر في رحلة جديدة بحثاً عن منبع نهر النيل العظيم.

لم تصلها أخباره خلال السنتين التاليتين. لكنها كانت تتحصن بنبوءة هاجار بورتون وتكتفي بما تورده الصحف. وجدت راحة نفسية عظيمة في الصلاة والدفاع عنه اجتماعياً حين يتعرّض للنقد. وخلال العام ١٨٥٧، ذهبت في رحلة مع اختها وصهرها حول أوروبا، فكانت كل المناظر تذكرها به وكأنهما «يلتقيان روحياً» كما قالت. وحين وصلت إلى جنيف، لاحقها أرمل أميركي ثري جداً. وفي جنوى اجتهد جنرال روسي كي يسكن المنزل الذي بجوار مسكنها وأغرق غرفتها بالورد دون أن تأبه له إطلاقاً، بل انكبّت على تسلّق الجبال الوعرة للمران فهي ستصبح زوجة مستكشف.

في افريقيا، كانت حملة بورتون تتقدم ببطء في الصحاري والمستنقعات، حتى وصلوا إلى ضفاف بحيرة تانجانيكا، فلم يتحرّج بورتون في إعلانها منبع نهر النيل. ثم أرسل أحد مساعديه، سبيكي، إلى الشمال، فوقع هذا على بحيرة فيكتوريا وقرر أن هذه

هي منبع النيل.. وكان على حق. ساد جدال عقيم بين الرجلين، لكن سبيكي اضطر للعودة إلى بريطانيا جراء حمّى أصيب بها بعد أن قطع عهداً أن لا يعلن ما توصلا إليه إلا حين عودة بورتون.. لكن، ما إن وضع قدمه في بريطانيا حتى نكث بعهده وأسرع إلى الجمعية الملكية للجغرافيا يخبرهم بأخبار الحملة، ويقنعهم أن يعينوه رئيس الحملة الجديدة التي لن يكون بورتون في عدادها. وعندما عاد ريشارد بورتون إلى لندن، لم يلاحظه أحد.

وفي اليوم الذي تلا وصوله، توقف بورتون في منزل أحد الأصدقاء ليسأل عن أخبار إيزابيل، ولمحاسن الصدف، وجدها هناك تتسقّط أخباره. خرجا مسرعين واستقلا سيارة إجرة دارت بهما لساعة حول لندن.

كان بورتون قد تغير إذ نحل جسمه بسبب الحمى التي أصابته في أسفاره الأفريقية، فأرادت إيزابيل الاعتناء بالرجل الذي تحبّ. «كنت أحدّق فيه وأفكر: أنت رجلي، فلا رجل في هذا العالم يساويك.» السيدة أرونديل بقيت على موقفها، وبعدها أدركت نوايا ابنتها، تولّت صدّهما ومحاربتهما كما يحارب المتدين الشيطان. ولا بد أن إيزابيل كانت متأكدة أن عائلتها لن توافقها على الزواج من ملحد مفلس.

نصّت لوالدتها رسالة طويلة ضمّنتها كل صفات بورتون الحميدة، وختمتها بالجملة التالية: «لو كنت رجلاً، لكنت تمنيت أن أكون ريشارد بورتون.. وبما إني امرأة فكل ما أتمنى هو أن أكون زوجة ريشارد بورتون.» في هذه الأثناء غادر ريشارد في رحلة تبحث عن تعدد الزوجات. وفي الأشهر التسعة التالية، كان بورتون يعاشر المرمون والهنود، بينما كرّست إيزابيل جهودها كي تتعلّم ما

سيساعدها في حياتها كزوجة كشّاف: صيد السمك وحلب الأبقار وتعشير الخيول وركوبها وتربية الدواجن وزراعة النبات والطبخ وكي الثياب وفن المنازلة بالسيف.

وفي عيد الميلاد عام ١٨٦٠، قرأت خبراً في صحيفة التايم يعلن قرب عودته، فأسرعت إلى لندن. وبعد وصوله بأيام تزوجا سراً في كنيسة كاثوليكية، وطلب منها أن تبدو وكأنها زوجته منذ سنوات. وافقت فوراً، فيكفيها أن تكون الآن قد نالت مرادها وأمست زوجة ريشارد بورتون. وبعد أيام، رأتها إحدى عمّاتها تدخل بيته فنقلت الفضيحة إلى أهلها. فانكشف أمر الزواج وحاولت السيدة أرونديل أن تعتاد على صهرها المشهور إذ غيرت رأيها بعد أن أمسى قنصل بريطانيا في جزر فيرناندوبو الواقعة إلى غرب أفريقيا. وبما أن هذه الجزر ترفض النساء البيضاء، رضخت إيزابيل ورضيت الفراق مرة أخرى. في هذه المرة، أحسّ بمرارة فراق إيزابيل التي أدرك مدى حبه لها.

عادت إيزابيل لتعيش في كنف عائلتها مشغولة بنشر كتاب بورتون المدافع عن مبدأ تعدد الزوجات مضيفة على المقدمة حملة تؤكد أن الكاتب لم يمارس هذا التعدد أبداً. ومن بعد ستة آلاف ميل، أرسل بورتون تقريراً عن نساء داهومي المحاربات، عارضاً فكرة ضمّهن تحت راية مكتب الدفاع الحربي البريطاني، بشرط أن يحافظن على عزوبيتهن إذ اضطر ملك داهومي مرة إلى تأجيل حرب حاسمة عندما وجد أن مئة وخمسين من جندياته في مرحلة الحمل.

قلقت إيزابيل لهذه الأخبار وأسرعت إلى دائرة الخارجية البريطانية باكية تطلب نقل زوجها إلى مكان آخر حيث يمكنهما أن

يعيشا معاً. فوافقت الدائرة ونقلته إلى سانتوس في البرازيل.

وصلت إيزابيل متحمّسة إذ ها هي أخيراً في الأجواء الغريبة التي حلمت بها، لكنها فوجئت بما رأت. فقد غطت الصراصير الكبيرة الحجم سريرها فوقفت على كرسي تصرخ وتبكي. فقال لها زوجها: «اعتقد أنك تجدين نفسك جميلة وأنت تقفين على هذا الكرسي تصرخين بوجه هذه المخلوقات البريئة.» عندئذٍ، انتعلت إيزابيل حذاءها وطاردت الصراصير فقتلت ٩٧ منها خلال ساعتين.

بالاضافة إلى كلّ ذلك، كان مبنى القنصلية البريطانية في سانتوس واقعاً قرب مستنقعات وأشجار استوائية تسكنها العناكب السامة والأمراض الرهيبة. فالتقطت عدوى الكوليرا لكنها عالجت نفسها وشفيت.

كان المجتمع هناك مفككاً خلف دخان السيجار. وكان الناس يتناولون البراندي على الفطور الصباحي. قررت إيزابيل أن تتأقلم وهذا الجو الجديد، فجعلت ديراً قديماً منزلاً لها وزينته تحضيراً لأول حفلة ستقيمها. ومع الزمن، كبر بيتها وحفل بعدد كبير من الخدم والعبيد الذين عاملتهم معاملة جيدة وعالجتهم من كل أمراضهم. كما وجّهت اهتمامها إلى الحيوانات المريضة، لكنها فوجئت بلامبالاة زوجها إزاء هذا المنزل الذي كوّناه.

بعد شهر من وصولهما، تركها وسافر في رحلة لاستكشاف الداخل إذ أن البرازيل وجوارها مصادر غنية بالمعلومات، فكان يرسل إلى منزله كل تقاريره عن المصادر المعدنية وعن النباتات والحيوانات وعادات القبائل الغريبة. فتولت إيزابيل صياغة هذه المعلومات صياغة جيدة وإرسالها إلى لندن.

وبعد ثلاث سنوات، أتعبهما المناخ الثقيل ومجموع الأمر التي أصابتهما. فقرر بورتون التخلي عن منصبه هذا. عند عادت إيزابيل إلى لندن واستخدمت نفوذها مرة أخرى لكي . المنصب الذي حلمت وزوجها به: دمشق.

كان بورتون مؤهلاً فعلاً لهذا المنصب، فقد كان مكيناً من ا العربية والعادات الشرقية والتقاليد الإسلامية. لم يكن هذا هد الحكومة البريطانية، بل كانت تبحث عن وجود سياسي دائم، ما يقدر بورتون على القيام به على الوجه الأكمل. كان والي سد التركي رجلاً فاسداً ومرتشياً، ونظر إلى بورتون نظرة ريب وشك إذ أدرك أن هذا الغريب مختلف عن الغرباء الذين سبقوه.

وصل بورتون إلى دمشق قبل إيزابيل، وانكب على الع بحماسة وارتياح إذ أحسّ أنه مولود جديد. فهو في الشرق الذ يحب والذي يحس أنه ينتمي إليه. وبعد ستة أسابيع من وصو ذهب متوغلاً في الصحراء يدرس المواضع الأثرية. نظر الباشا ذلك نظرة شك إذ لم يفهم حاجة هذا الغريب إلى التوهان الصحراء بحثاً عن بعض الركام القديم... فلا بدّ أنه يتصل بر القبائل ويتآمر معهم.

وصلت إيزابيل ترافقها وصيفتها الأنكليزية وخمسة كلاب ﺑ واحد من نوع سان برنار، والكثير من الأمتعة. فقد قررت أن تـ هنا عشر سنوات. اختارت منزلاً جميلاً على إحدى الهضـ خارج المدينة، وملأته بالحيوانات المختلفة من النعاج إلى النـ والفهود. لم يهتم بورتون لكل هذا واكتفى بهز رأسه إزاء شـ إيزابيل غير القابلة للتطويع في علاج الفقراء والضعفاء وفي ﻧ العقيدة الكاثوليكية في هذا البلد الغريب.

لكن سلوك بورتون هو الذي تسبب بالمشاكل. كان رجلاً شريفاً وعادلاً يرفض الرشوة التي اعتادها العرب من حوله. فعندما حضر رجال الباشا التركي يحملون رشوة كبيرة إلى منزله، طردهم بعد أن شتمهم. كما أنه رفض أن يحصر اهتمامه بشؤونه الخاصة، فغضب للفوائد العالية التي يتقاضاها المرابون اليهود من الناس، فأرسل تقارير بهذا الشأن إلى لندن. وظهر جلياً أنه يفضل المسلمين على اليهود، وناصرهم ضد مواطنيه، فكانت تلك الخطيئة المميتة في نظر القنصلية البريطانية. لكنه أثار غضب المسلمين أيضاً عندما فرض جزية على قبيلة درزية بعد أن هاجم بعض أفرادها أعضاء إرسالية بريطانية. كما أغضب اليونانيين عندما اعترض على مطرانهم بعد أن وضع يده على كنيس ومقبرة يهوديين. الخلاصة أنه رجل بصفات حميدة لكنه كان يفعل الصواب بطريقة خاطئة.

أعظم أخطائه كانت قصة الطريقة الصوفية الشاذلية التي بُهر بها وأخذ يحضر اجتماعات الذكر مع أعضائها. وفي أحد الأيام، تراءى لصوفي منهم أن خلاصهم سيكون على يد راهب إسباني، فتحضر كل الشاذليين من أجل التحول إلى المسيحية. عرضت إيزابيل أن تدعمهم جميعاً وتمدّهم بالمال وذهل ريشارد لهذا التحول الجماعي، فكتب إلى الحكومة البريطانية يطلب رصد المال اللازم وقطعة أرض لهؤلاء فيسكنون فيها. خاف الباشا التركي من انتشار ظاهرة الإرتداد عن الإسلام، فأمر باعتقال هؤلاء الشاذليين وزجهم في السجون. ثار بورتون، وأرسل تهديداً للباشا الوالي باسم الحكومة البريطانية. رأى أعداؤه اليهود والمسيحيون فرصة تلوح لكي يتخلصوا من وجوده هناك، فكتبوا الشكاوى الكثيرة ووجهوها إلى دائرة الخارجية البريطانية.

قررت الخارجية البريطانية أنها اكتفت بما سببه بورتون من مشاكل في دمشق، وعليه أن يغادرها. وكان الزوجان في لبنان حين استلم ريشارد رسالة نائب القنصل في بيروت بهذا الشأن. أسرع إلى دمشق ثم أرسل إلى زوجته: «لقد استبدلت. إدفعي واحزمي والحقي بي.» ودون أن ينظر خلفه، غادر دمشق بعد سنتين من وصوله إليها.

لم يحتج على هذا الأمر أبداً، بل كانت إيزابيل من نصّ الرسائل الساخطة إلى دائرة الخارجية، ومن ألّف كتاباً حول رحلة دمشق وتفاصيلها. كما أخذت تهاجم السياسة الخارجية في صحيفة التايمز، ماحدا اللورد غرانفيل بالكتابة إليها عارضاً على زوجها منصب قنصل في تريست. كان بورتون يفضل بومباي أو بيكين لكن لا أمر لمن لا يطاع، فقبل المنصب الجديد وانتقل إلى تريست مع زوجته. أحبت إيزابيل المدينة لكن ريشارد كرهها. كانت كلفة المعيشة منخفضة، فخفّضت الحكومة مخصّصاته إلى سبعمائة جنيه سنوياً، فقام بزيادة إيراده من طريق تأليف كتب الأسفار والتاريخ والدراسات الأثرية والشعر والترجمات المقتربة من الإباحية إذ كان يحب دوماً أن يوجّه الصدمات للفيكتوريين المحافظين.

أصابت إيزابيل بعض الشهرة أيضاً من طريق كتابها «الحياة

عندما كانت إيزابيل في دمشق، كانت تفتح بيتها للجميع يوماً واحداً في الأسبوع، يدخله من يشاء. وحاولت مراراً أن تعلّم ضيوفها العادات الأوروبية. وفي مرة أدخلت نبيلاً عربياً وحريمه إلى الدار وأجلستهن قرب زوجهن. وعندما طلبت منه تمرير كوب القهوة لإحداهن، ثار غاضباً وصاح «أرجو ألا تعلمي نساءنا ما لا يعلمن» وخرج تتبعه النساء.

اليومية في سوريا»، ووافق زوجها اصطحابها إلى الهند. سافرا من طريق الجزيرة العربية، ومن جدّة أبحروا على متن سفينة مليئة بالحجاج المسلمين، فانهمكت في توفير العناية الصحية لهم. كانت الرحلة صعبة جداً، لكن عندما وصلت إيزابيل إلى الهند، أدركت أن ذلك الجهد لم يذهب أدراج الرياح. فالهند هي فعلاً جوهرة الشرق التي راودتها في الأحلام منذ قرأت (Tancred). كان بورتون دليلها في الأدغال والأسواق والسهول الرائعة. كانت تلك الرحلة تعويضاً عن الحياة المملّة في تريست.

وبعد عام ١٨٨٣، تحسّنت الأوضاع فجأة. فقد كان بورتون أمضى سنوات عديدة في ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة، فقرر أن ينشر نسخة خاصة به فيها الكثير من ملاحظاته وتفسيراته. عرض أحدهم شراء حقوق الطبع بخمس مئة جنيه، لكن إيزابيل رفضت وأرسلت ٣٤ ألف رسالة، فلقي الكتاب الضخم رواجاً غير متوقع، وردّ على آل بورتون ثروة كبيرة قدرها ستة عشر ألف جنيه.

في هذا الوقت، كانت إيزابيل في منتصف خمسينياتها، وريشارد في منتصف ستينياته. أصيبت إيزابيل بورم خبيث رفضت علاجه كي لا تقلق ريشارد، إذ قررت أن يكون ذلك انتحاراً بطيئاً. وفي العام ١٨٨٦، فرح الزوجان حين تلقيا خبر خلع الملكة صفة الفروسية على بورتون.

إنكبت على تخليص روح زوجها بتحويله إلى الكاثوليكية. فقد اعتقد أن القسم المسلم والقسم المسيحي من الجنة بعيدان الأول عن الآخر، وجزعت أن لا تلتقي روحاهما إن هو مات مسلماً. وافق على أن يصلي معها لكنه رفض أن يتخلى عن مبادئه وعن نقده للمسيحين.

ساءت حالهما الصحية فصرفا الكثير من المال على الأطباء. وفي ١٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٩٠، توفي ريشارد قبل أن يصل الكاهن الذي أرسلت إيزابيل في طلبه عندما لاحظت سوء حال زوجها. أقيم له مأتم عظيم خدمه أسقف تريست، وأقيمت القداديس لراحة نفسه برغم امتعاض عائلة بورتون التي رأت أن الكنيسة الكاثوليكية قد سرقت منهم إبنهم.

بوفاة زوجها، شعرت إيزابيل أن حياتها قد انتهت. قررت أن تنفذ وصية زوجها أن يدفن في خيمة بدوية عربية، فرصدت المال اللازم لبناء خيمة أعرابية من الرخام والمرمر.

في يوم الأحد ٢١ آذار/ مارس ١٨٩٦، أسلمت الروح ودفنت إلى جانب زوجها في خيمة الرخام والمرمر في مورتلايك.

٨

أليزابيت باريت وروبيرت برادنينغ

لم يصل روبيرت برادنينغ وأليزابيت إلى مصافي العشاق المشهورين إلا عندما أصابت مسرحية رودولف بيسّييه «آل باريت في شارع ويمبول» الشهرة في لندن ونيويورك في موسم عام ١٩٣٥.

كان ذلك آخر ما تريده أليزابيت. في العام ١٨٤٥، كانت في التاسعة والثلاثين تكتب الشعر الذي شهرها قليلاً لتنسى مرضها قليلاً. فهي اعتادت أن تبقى حبيسة هذه الغرفة التي يدخل إليها والدها كل مساء ليلتقط يدها بين كفيه ويصلي متضرعاً كي تشفى. كان إدوارد مولتون باريت مستبداً فيكتورياً ورعاً فرض على عائلته نظام سلوك صارم. لم يضعف موت زوجته من إرادته ومواقفه، بل أودى بحياة العضو الحنون في العائلة. بالنسبة لأليزابيت، كان عطوفاً ورؤوفاً إذ كانت مخلصة له منذ صغرها، لم تعارضه أبداً على عكس الآخرين الذين طالما احتاجوا لتذكيرهم بواجباتهم.

أمضت أليزابيت سنوات طفولتها الأولى قبل إصابتها بالمرض



اليزابيت باريث برادلينغ

في الريف قرب هضاب مالفيرن، في منزل أطلق عليه الوالد إسم «نهاية الأمل». بعد وفاة السيدة باريت، تنقلت العائلة في بيوت عديدة. في العام ١٨٤٠، كانوا يسكنون في توركاي عندما ألمّ بهم المصاب الثاني، فقد غرق شقيق أليزابيت الكبير، إدوارد. وبعد هذه الحادثة، انتقلوا إلى المسكن رقم ٥٠ في شارع ويمبول اللندني.

أحبت أليزابيت عائلتها كثيراً، وكانت الواسطة بين أخوتها وأبيها القاسي. فكانت لسانهم عندما يطلبون بعض التبديل والليونة

في نظام المنزل الروتيني، كأن يُدعى صديق إلى المنزل. وبرغم أنهم أمسوا كباراً، عاملهم والدهم وكأنهم بعد صغار السن ورفض تزويجهم. لم يؤثر ذلك في أليزابيت التي اعتبرت أنها مريضة وكبيرة السن على الزواج، أو في أختها الوسطى أرابيل التي استسلمت لحياة الورع كعانس. لكن ذلك كان قاسياً على الأخت الصغرى هنرييتا الصبية والنشيطة. كذلك عانى أخوة أليزابيت الخمسة من طغيان والدهم ومنعهم تحكّمه بمالهم من الهرب.

كانت هذه أحوال العائلة عندما دخل روبيرت براونينغ حياة أفرادها في أيام كانون الثاني/ يناير ١٨٤٥ الباردة. فقد أرسل إلى أليزابيت رسالة كتب فيها: «أحب أشعارك كثيراً يا آنسة باريت، كما أحبك أنت».

لم تكن قد التقته أبداً لكن ما إن قرأت شعره حتى أحسّت أنها تعرفه حق المعرفة. فأجابته تشكره على عواطفه ومجاملته وعلى اهتمامه في شعرها وكتبها وتناقشه في أمر قصيدة أو أخرى. وهكذا، بدأت علاقتهما الفريدة التي استمرت زهاء سنتين.

كانت حياة روبيرت تتميز بالحرية بمقدار تميّز حياة أليزابيت بالقيود. وكان يصغرها بست سنوات. وعلى مثالها علّم نفسه بنفسه متتلمذاً على كتب كبار العلماء والمثقفين والكتّاب وجدها في مكتبة أبيه. أتقن الفرنسية والإيطالية واليونانية والإسبانية بآدابها وتمكن من العيش مقتاتاً مما تدرّ عليه مسرحياته وأشعاره. كما كان محبوباً يقضي الأوقات مع الأصدقاء في الأوبرا أو المسرح. وبعمر الثالثة والثلاثين، كان وسيماً مميزاً خصوصاً بعدما سافر إلى موسكو ليعمل سكرتيراً للسفير الروسي، وإلى إيطاليا مرتين.

في طريق عودته إلى لندن من إيطاليا عام ١٨٤٤، لاحظ

دواوين شعر الآنسة باريت المنشورة حديثاً. وعندما قرأها أحس بنفسه مشدوداً إليها وإلى ثقافة كاتبتها، وأحب «موسيقى الكلمات الغريبة، واللغة الفيّاضة والرثاء المختار بعناية والأفكار الحقيقية والشجاعة.» فقرر البحث عنها للقائها. كان لهما صديق مشترك، السيد كينيون، فاستجوبه براونينغ عن كل تفاصيل حياة الآنسة باريت. أخبره أنها لن تعيش طويلاً وأنها تحبس نفسها في غرفة مقفلة الستائر. كما حدّثه عن والدها المتسلّط الذي يكره الزوار. وفي أحد الأيام، اصطحب براونينغ السيد كينيون إلى منزل آل باريت لكنهما اضطرا إلى المغادرة دون رؤية الآنسة باريت لسوء حالتها الصحية. فكتب إليها رسالته الأولى تلك آملاً أن تسمح له بمقابلتها وكان ردّها: «الشتاء يحبسني في منزلي.. أما في الصيف فسترى.» وجدا الكثير المشترك بينهما وتبادلا الرسائل اليومية. وعندما أهلّ الدفء أعاد السؤال طلباً للقاء ثانية فأجابت: «صيفي يصل متأخراً قليلاً.»

وفي أواخر أيار/مايو، التقيا أخيراً. فرأى لأول مرة «الخيال الدقيق الذي لم يقف عن الكنبة، بالوجه الشاحب والعينين الكئيبتين.» أثّر هذا اللقاء فيهما، فازداد تعلقه بها وكتبت هي: «عندما جئتني ما غادرتني أبداً.» وبعد يومين وصلتها رسالته العابقة بالعشق، فلم تنم ليلتها وكتبت تمنعه من الإستمرار في التعبير عن عشقه هذا، لكن بأسلوب رقيق، وأنهت كتابها بدعوته إلى زيارتها متى شاء.

استمرت الزيارات والرسائل، وناقشا أعمال تينيسون وروايات

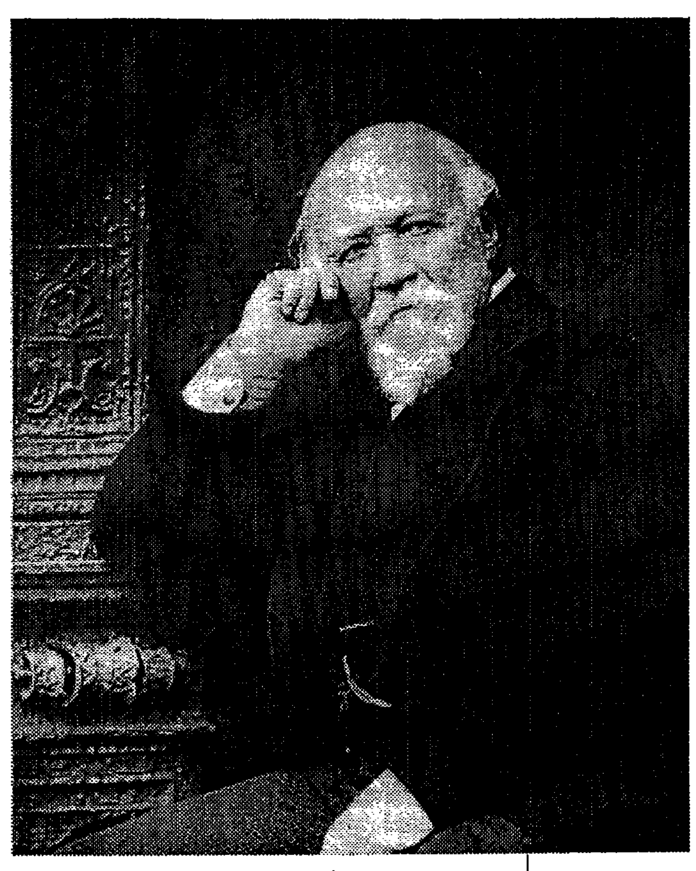
> **العاشق.. يحاول التودد حتى لكلب حبيبته.**
>
> Moliere

جورج صاند. تنبّه كلبها فلاش لهذه العلاقة الحميمة بين سيدته وزائرها فدبّت فيه الغيرة وهاجم مظلته، لكن براونينغ أرضاه بقطع الحلوى التي حملها إليه.

في ١٤ حزيران/ يونيو، دسّ براونينغ وردة صفراء في رسالته، ثم أرسل طيلة الصيف الورود ليفوح عطرها في بيت وغرفة محبوبته. أعطاها وجوده القوة والنشاط والتصميم، وفي منتصف الصيف بدأت تخرج من عزلتها إلى الحديقة تملأ رئتيها بالهواء النقي.

في ذلك الوقت، وبعدما لاحظ الطبيب بوادر تحسّن صحتها، رأى أن تقضي الشتاء في مناخ دافىء كمناخ مالطا أو الأسكندرية. لكن والدها رفض قاطعاً أن تقوم بهذه الرحلة. بخلاف أخوتها وأخواتها، كانت أليزابيت مستقلة اقتصادياً عن أبيها بفضل مال خالها، لكنها، وهي اليوم في الأربعين، فضّلت أن تخضع لإرادة أبيها. أما الآن، فقد اقتنعت أن الحب الأبوي الذي وثقت فيه كان صادراً عن أنانية وحب تملك.

حين حضر براونينغ لزيارتها في الخامس والعشرين من آب/ أغسطس، أخبرته بمتاعبها التي سببها تسلط أبيها الذي وصل إلى حدود رفض أحد المتقدمين للزواج من هنرييتا، القبطان سورتيس كوك، وإجبارها على التعهد بعدم لقائه. ومنذ ذلك الحين، حبلت رسائلها إليه بالثقة والأسرار. فكتبت إليه عن ذكرياتها المقدسة وعن حياتها السابقة وأخيها الميت. تأثر براونينغ للثقة التي منحته وأراد أن يبادرها بالمثل، لكنها سبق أن منعته من الإعتراف بمشاعره الحميمة تجاهها، فاعتكف عن الكتابة يومين متتاليين. قلقت أليزابيت وأرسلت تحضه على الكتابة «ولو سطر واحد فيطمئن قلبي».



روبرت براونينغ

نفى هذا النداء كل شكوكه فكتب يعبر عن هيامه بها عارضاً الزواج منها فوراً، فردّت أنها «لن تسمح له بإفراغ جعبة الماء خاصته في التراب»، إذ خافت أن يحطم مرضها حياته، لكنها لم تنفِ حبها. اكتفى براونينغ بهذا، فقد تأكد له ما أراد ولن يمارس عليها الضغوط أبداً. ومنذ ذلك الحين، أمست الرسائل مشابهة لرسائل المخطوبين، وبدأت هي تعبّر صراحة عن مشاعرها نحوه، لكن العقبات ما تزال صعبة التخطي. أولاً، مرضها المتمكن منها، لكنها

أمست أقوى مما كانت، وذلك بفضل تشجيعه وحبه. فقد أمست اليوم قادرة على نزول السلم دون مساعدة وعلى التنزه في حدائق ريجينت بارك برفقة كلبها فلاش. لقد جعلها تحسّ أن مستقبلاً ينتظرها.

كانت ذروة مخاوفها أن ينكشف أمر حبهما. فلو علم السيد باريت بالأمر لدمّر رسائل براونينغ قبل أن تصلها ومنعه من دخول المنزل. فقد قبل أن يزورهم لأنه متأكد أن رجلاً لن يقع في حب إبنته المريضة هذه. وبمرور الأيام، كانا يتحدثان عن مشاريعهما المستقبلية، وكان التوتر يتصاعد. وفي العاشرة من أيلول/ سبتمبر، صدر مرسوم إعادة تصميم منزل شارع ويمبول فاضطرت العائلة للإنتقال إلى مكان آخر لمدة شهر. فكتب إليها: «إن ذهبتِ تأجّل زواجنا سنة كاملة فيجب أن نتزوج فوراً وأن نطير إلى إيطاليا» وبعد يومين، خرجت أليزابيت وخادمتها ليلي ويلسون من المنزل وتوجها إلى كنيسة ماريلبون حيث ينتظر روبيرت. وهناك، تمّ عقد قرانهما بحضور شاهدين، أحد الأقرباء وليلي ويلسون. وعندما عادت إلى المنزل، خلعت خاتمها وعلّقته حول عنقها بواسطة شريط. فالسفر مؤجل حتى تتحسّن حالها.

لم يعد براونينغ إلى زيارتها في المنزل ثانية. خلال الأسبوع التالي انهمك الجميع في توضيب الأغراض والحوائج المنزلية فلم ينتبهوا بأليزابيت وخادمتها يوضبان أمتعتهما تحضيراً للسفر. كتبت

سألت أليزابيت باريت روبرت براونينغ قبل أن تتزوجه عن المعنى المختبىء في إحدى مقاطع ضمن قصيدة له فأجاب «آنسة باريت، عندما كتبت هذا المقطع أنا والله كنا نعرف معناه.. أما الآن.. فالله وحده هو العليم.»

أليزابيت رسالة إلى والدها تحاول أن تشرح ما فعلت وتطلب الغفران. وبعد أسبوع من الزواج، التقت وزوجها، ترافقها ليلي ويلسون وفلاش ثم رحلوا جميعاً إلى إيطاليا.

عاشوا بادىء الأمر في بيزا ثم انتقلوا إلى فلورنسا. تحسنت حالها بفضل المناخ الدافىء والشمس والحب. وفي العام ١٨٤٩، رزقت بطفل ذكر أسمته «بيتيني»، وتزوجت ليلي ويلسون من فلورنسي وانتقلت إلى منزله.

استمر الشاعران في كتابة الشعر، يتبادلان القصائد ويترجمان الجميل منها. زارت وزوجها وإبنها إنكلترا مرتين لكنها لم تلتق والدها. فهذا بقي غاضباً مما فعلت حتى مماته يعيد رسائلها مختومة كما تصله ويعتبرها ميتة. واستقرت في منزل أختها هنرييتا التي حذت حذوها وهربت من والدها لتتزوج من سورتيس كوك.

وفي إحدى أمسيات شهر حزيران ١٨٦١، أصابها داء التهاب الرئة وتوفيت بين ذراعي زوجها مبتسمة سعيدة ورأسها على وجهه.

٩

كارين بليكسين

لم تتفشّ أسرار العلاقة التي جمعت كارين بليكسين ودنيس فينش هاتون، الصياد الماهر الذي أودى حادث تحطم طائرة بحياته عام ١٩٣١، إلا بعد عرض فيلم «خارج أفريقيا» (Out Of Africa) في العام ١٩٨٦.

ولدت كارين بليكسين في رانغستيد الدانماركية عام ١٨٨٥ في عائلة محترمة من الطبقة الوسطى، وعاشت مرتاحة في منزلها قرب كوبنهاغن. كانت الحياة هناك مملّة تتحكم بها النساء. توفي والدها وهي في العاشرة، وقد كان رجلاً رحالة صياداً وجندياً أحب الطبيعة والوحدة. عندما كان شاباً، قدر على الفرار من بيئته الدانماركية المغلقة وذلك بعد أن ماتت قريبته الجميلة التي أحبها بسبب إصابتها بالتيفوئيد. صرف سنوات عديدة ينصب الفخاخ إلى جانب الهنود الأميركيين في غابات ويسكونسين. وعندما عاد إلى الدانمارك ليكوّن أسرة ويستقر، انكب على تأليف الكتب حول خبراته في الصيد والمطاردة، ثم دخل حقل السياسة. لكنه كان رجلاً حساساً مكتئباً، ولم تعرف كارين، إبنته، أنه شنق نفسه

لإعتقاده أنه مصاب بمرض لا شفاء منه إلا بعد سنوات من موته.

تشبه كارين أباها كثيراً خصوصاً في حب الحياة والكتب والإنجذاب إلى المواضع الموحشة وإلى الناس البسطاء غير المتمدنين. وجدت الحياة في الدانمارك ثقيلة الوطأة. كان المنزل مشابهاً للأديرة إذ هو مليء بعماتها وخالاتها وأخواتها غير المتزوجات. كافحت دائماً كي تحتفظ بحيويتها وبشخصيتها الخاصة بعيداً من التطفل والتحكم من طريق كتابة المسرحيات وتعلّم الرسم. حين بلغت الثامنة عشرة، اقنعت عائلتها بالسماح لها كي تنتسب إلى الأكاديمية الملكية للفنون في كوبينهاغن، وفي السنة التالية درست الفنون في باريس وروما. لطالما حلمت بالفرار الدائم لكن الفرصة فاتتها حتى بلغت عشريناتها.

أحسّت نفسها واقعة في غرام أحد أقربائها الأرستقراطيين، هانس، لكنه لم يأبه أبداً لها. وفي العام ١٩١٢، خطبت لأخيه التوأم برور الذي طاردها بحماسة. ورث برور لقب بارون فون بليكسين، لكن العائلة لم تعد ثرية، لهذا عمل في إدارة مزرعة ألبان بناها على أرض ملك العائلة. في البداية، لم يلق برور من كارين سوى الصدّ قائلة إنها لا تقدر على العيش في الدانمارك التي تعتبرها أثقل بقاع الأرض وطأة على قلبها. وعندما صارحها بنيته الهجرة والسفر، رضيت ووافقت على الارتباط به. وجد كل منهما في الآخر ضالّته، فكان لدى برور اللقب وروح المغامرة دون مال، ولديها مال عائلتها لكن تحتاج إلى المغامرة. اندهش الجميع لهذا الارتباط إذ ليس يجمعهما مشترك. عارضت والدتها هذا الزواج لتأكدها أن كارين لا تحب برور، لكن الخطيبين كانا سعيدين جداً لمغادرتهما الدانمارك معاً.

في ذلك الوقت، كانت كارين ممشوقة القامة طويلة، داكنة الشعر تربطه وتدخله داخل قبعتها، محددة الذقن طويلة الأنف كبيرة العينين. أما برور، فكان يصغرها بسنتين ممتلىء الجسم محبّب السلوك، شعره أشقر قصير وعيناه زرقاوان وشفتاه مكتنزتان. طباعهما مختلفة تماماً، قد تربّى برور في ميادين سباق الخيل ورحلات الصيد والقنص وسباق السيارات والحفلات والملذات الأرستقراطية، ولهذا ترعرع لا يقدر المسؤولية وخصوصاً في المجال المالي، لكنه كان محبوباً حتى بين دائنيه. بخلافه، كانت كارين جدية وذكية، تهوى القراءة والرسم كما تتكلم لغات عديدة.

في العام ١٩١٢، غادر برور (المعروف باسم بليكس) إلى كينيا حيث استملك مزرعة كبيرة في هضاب نغونغ، إلى الغرب من نيروبي، وذلك بمال عائلة كارين كمساهمين في مشروع زراعي للبن. بعد ستة أشهر، أبحرت كارين للإنضمام إليه. وفي اليوم الذي تلى وصولها إلى مومباسا، تزوّجا هناك وشهد على قرانهما ملك السويد الذي صودف وجوده هناك. وبعد ذلك، توغلا في الداخل الأفريقي المختلف تماماً عن الدانمارك. فقد مرّا في سهول خضراء تتمتع بجمال رائع وتعبق برائحة الحرية والعظمة. وما إن بدأ تسلق الخندق الشرقي لسهل ريفت حتى تغير المنظر وتحولت الأرض إلى وعر صخري أجرد كسطح القمر. وبعد مسير يومين، وصلا إلى الأراضي الخضراء الخصبة: هضاب نغونغ.

تقع المزرعة على مسافة ١٢ ميلاً خارج نيروبي، على ارتفاع ستة آلاف قدم عن سطح البحر، تحدّها من الجهات جميعاً مناظر غنّاء وخصوصاً من جهة الجنوب حيث ترعى قطعان الحمار الوحشي على امتداد السهل حتى الأفق حيث يبدأ سفح جبل كيليمينجارو.

امتدت المزرعة على مساحة كبيرة جداً من الغابات والسهول وتحيط بها هضاب متسلسلة ملتوية كالأفعى. كان ثمة شعور بالوحشية في كل مكان فالقرود تصيح في الغابات، وحيوانات الجاموس والعلند ووحيد القرن على سفوح الهضاب، والأفيال والزرافات في الأدغال الجافة. هناك، أحست كارين أن أفريقيا «تقطّرت خلال ستة آلاف قدم وكأنها جوهر القارة.»

منذ البداية، أعجبت بالأراضي والمناظر وبالناس، فقررت ألا تفارق هذا المكان. وعندما وصلت منزلها وجدت قرابة ألف ومئتي أفريقي ينتظرون لاستقبالها وتحيتها، فصاحوا صيحة واحدة وكأنها زئير أسد حين اقتربت منهم. كان هؤلاء من الكيكويو المستقرين في المزرعة يعملون فيها العمل اليدوي. «كان السكان الأصليون أفريقيا بلحم ودم... فالبراكين الكبيرة الخامدة، وأشجار الميموزا العريضة، والزرافات والأفيال ليست أفريقيا الحقيقية، لكن هؤلاء هم أفرقيا، خيالات صغيرة في مكان واسع.. فنحن المتنعلين الأحذية العالية لا نأمن الأرض الوعرة، لكنهم يأمنونها إذ هم امتدادها..»

في العام ١٩٠٩، وصل ثيودور روزفلت وإبنه كرميت إلى شرق أفريقيا في رحلة صيد. اصطحبا مئتين وخمسة وستين أفريقياً ليحملوا حاجياتهم في الأدغال، من الطاولات والكراسي وأواني الاستحمام، فطال موكبهم لميل كامل. كما حملوا أربعة أطنان من الملح بغية استعماله في معالجة جلد ولحم الحيونات.

وخلال عشرة أشهر، قنصت الحملة قرابة خمسمئة حيوان من سبعين نوعاً إلى جانب آلاف الثديات والطيور والزواحف والأسماك لنقلها إلى المتحف السميثوني.

انكبت كارين على العمل هدفها أن تصبح مزارعة بن. وفي تلك الشهور القليلة التي سبقت اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى، تعلمت حياة المزرعة وحياة الزوجية. ملأت المنزل بالتحف القديمة والكؤوس الكريستالية الثقيلة والأواني الصينية الفخمة التي شحنتها من الدانمارك. وبمساعدة الأفارقة، نظمت حديقتها بينما صرف بليكس وقته في تأهيل أراضي المزرعة وزراعة غرسات البن. وفي خلال العام، انطلقا في رحلة في مجاهل أفريقيا واكتشفت ما هو الرعب لوجود الحيوانات المفترسة بقربها، وماهي متعة مطاردتها وصيدها. فحتى ذلك الحين، لم تنم في خيمة ولم تمسك بندقية أو تقتل أي مخلوق. عرفت إثارة القنص لكنها لم تمارس هذه العادة فيما بعد. وما إن عادا إلى المزرعة حتى غرقت في أشغالها ونسيت البندقيات والرحلات مكتفية بنزهة يومية على صهوة حصانها «روج» في السهول الخضراء المجاورة.

كان ثمّة وقت للتفكير إذ أمضت أياماً وليالي عديدة وحدها. فبليكس كان يغيب مراراً في نيروبي بسبب الأعمال. ونيروبي هذه يصفها بليكس بالقول: «تشبه علبة سردين فارغة»، لكن فيها فندق حديث «نادي موثياغا».

كان معظم الرواد من أبناء العائلات التي تملك الأراضي، بعد أن وجدت في كينيا مساحات شاسعة من الأراضي العذراء ذات الثمن الزهيد. وكان ثمة جو مشابه لإقطاع القرن الثامن عشر، لكن أخطار استصلاح الأراضي كانت كبيرة. هذا ما حدّد مزاج وطبقة المستوطنين القدماء، فكانوا ذوي إرادة قوية أمنت لهم مواردهم المالية بعض الحرية.

كانت كينيا تتمتع بمناخ إباحي، فنسي الناس عادتهم المتمدنة وأقدموا على تعدد الزوجات نهمين.



كارين بليكسين

لم تكن كارين تأبه لوحدتها إذ ثمة الكثير لإشغال وقتها.راقبت إنشاء مصنع تحميص البن والمدرسة والمستوصف المهمة جداً من أجل الجالية الأفريقية المستقرة على أرضها. وعندما اندلعت الحرب الأولى في العام ١٩١٤، كان لكل واحد دوره. ساعدت كارين بليكس في نقل المؤن إلى الجبهة التانزانية، في الطرف الآخر من أرض ماساي. وفي إحدى المرّات، تعرض لهجوم الأسود فطاردتهم وحيدة بواسطة سوطها. فقد أمست قاسية وقوية كالأرض تماماً.

وفي العام التالي مرضت وطال مرضها. كان التشخيص الأول يدلّ على أصابتها بالملاريا، لكنها لم تستجب للعلاج. وأخيراً، تبين أنها التقطت مرض السفلس من زوجها. فعادت إلى الدانمارك لتتلقى علاجاً طويلاً ومؤلماً بالزئبق.

عندما عادت في السنة التالية إلى المزرعة، كان زواجها من بليكس في حكم المنتهي، لكنهما استمرا في إدارة مزرعتهما معاً. في غيابها، كان بليكس مثابراً على علاقاته النسوية وعلى شرب الكحول وحضور الحفلات الماجنة، كما غرق في ديون باهظة. برغم كل ذلك، كان جذاباً ولبقاً، واستمر في الظهور وكارين وكأنهما زوجان.

دخل دينيس فينش ـ هاتون حياة كارين في الوقت المناسب.. أي حين كانت بأمسّ الحاجة لعلاقة غرامية تُعيد إليها كبرياءها وتخلصها من الوحدة القاسية. التقته يوم ٥ نيسان/ أبريل ١٩١٨ خلال عشاء في نادي موثايغا. كانت فضولية بعدما سمعت عنه الأخبار والتعليقات المعجبة، فإذا هو طويل القامة وسيم أرستقراطي فقد بعض شعر رأسه. كان في إيتون برفقة صديقه الشاعر جوليان غرنفيل، في الواحدة والثلاثين من عمره، مأذوناً من الحرب إذ كان قبطان طائرة حربية.

رفض دينيس حياة أهله المحافظين في لندن وحضر إلى كينيا قبل ثمانية أعوام وبعد أن غادر أوكسفورد مؤكداً أن انكلترا صغيرة جداً عليه. اشترى أرضاً في الشمال حيث استوطن يعمل في التجارة، بعد أن سيطرت عليه مشاعر تقدير هذه الأرض الشاسعة التي لا تعرف بزمان ومكان. وهذا ما زاد من جاذبيته في عيني كارين.

سُمي دينيس بهذا الإسم كتذكر لديوينسوس إله الخمر، وذكر كارين بأحد تماثيلها البرونزية. ما يهمها كان ذكاءه وأحاسيسه، أي اعتبرته الرجل الذي يشاركها أفكارها في حب الأدب. ما إن التقيا حتى سرى بينهما الإعجاب الفوري المتبادل، لكنهما لم يظهراه. على كل حال، كان من صنف الرجال الذين ينزلقون بسهولة في الحب.

تمّ لقاؤهما الثاني بعد شهر. كان وقت عودة دينيس إلى الجبهة قد اقترب، ودعاه آل بليكسين ليرافقهم وبعض الأصدقاء في رحلة قنص. فقتلوا ثلاثين أيلاً وابنتي آوى ونمراً قبل أن يتحلقوا حول النار ليتبادلوا الأحاديث. بقي دينيس على العشاء، وقضى الليلة في منزلهما إذ تأخر الوقت على مبيته. وفي صباح اليوم التالي، أوصلته كارين إلى نيروبي حيث تناولا طعام الغداء معاً. في هذا الوقت كانت وقعت في غرامه وكتبت إلى أختها: «نادراً ما يلتقي إنسان بآخر فيودّه سريعاً.. ونادراً أيضاً أن نلتقي مجدداً إلا بعد عام كامل أي في نهاية الحرب، إذ عاد مصاباً بالحمى واستقر في مزرعة آل بليكس لترعاه كارين. كان ذلك الحين وقتاً مسحوراً بالنسبة لكارين. كانت امرأة «خيالية» لكن قسوة العيش في افريقيا أخمدت توهج مخيلتها، فتحولت الآن إلى حديقة متعطشة للمطر حين يدوي الرعد. بالحقيقة، بدأ تساقط المطر حين كان دينيس ضيفها في المزرعة واعشوشبت الحديقة وتبرعم البن. كتبت كارين إلى أختها: «المنطقة هنا جميلة وكأنها جنة على الأرض.» وبعد زمن قصير، إصطحبها دينيس وحدها في رحلة سافاري حول جبل كينيا، وكانت هي المرة الوحيدة التي رافقته في هكذا رحلة.

وبعد وقت رائع أمضته كارين في هذه الرحلة، عادت ثانية إلى حقيقة حياتها المرة. في غيابها، استمر بليكس في عبثه يقضي وقتاً

قصيراً في المزرعة بسبب انشغاله بأمور أخرى. مالياً، لم تكن المزرعة تلاقي نجاحاً خصوصاً بعد عام من الجفاف قضى عليها، فقام بليكس بمحاولة زيادة الدخل من طريق سرقة العاج. لم يكن لفترات غيابه عن المزرعة أي نتائج إيجابية.

امتلك دينيس كوخاً في الأراضي المحيطة بنادي موثايغا، وصرف وقته في الترحال من أجل العمل والمتعة. لم يصبح صياداً ورحالة محترفاً إلا بعد سنين عديدة، فانحصرت موارده المالية بتجارته مع الماساي.

لم يكن بليكس في وضع يسمح له بالاعتراض على دور دينيس في حياة كارين لكنه أحب الرجل وقدّمه لأصدقائه بعبارة «صديقي وعشيق زوجتي». أجفل دينيس لهذا الكلام إذ يتمسك بالفضيلة ويكره أن يشار إليه بسوء.

أحبها دينيس بطريقته الخاصة، ولم يرد أبداً أن يكون زوجاً، بل عشيقاً حضر متى أراد وغاب متى أراد. أما كارين فكانت إستحواذية تحتاج إلى عشيق هو الزوج في الآن نفسه، ولهذا السبب لم تلتقِ حاجاتهما.

انتقل بليكس للإستقرار في نيروبي بعد أن انفصل نهائياً عن كارين. وبعد أيام، أحضر دينيس حوائجه الخاصة إلى المزرعة حيث استقر مناصفاً وقته بين تجارته ورحلاته في الأدغال، أي يقيم في المزرعة أسبوعين كفاصل بين شهور يرتحل خلالها. كتبت كارين في مذكراتها: «عندما تنوي الآلهة على معاقبتنا، تهبنا ما نريد.» اعتادت انتظار عودته من ترحاله بفارغ الصبر ومتى وصل جلسا يتكلمان عن كل الأمور التي صادفتهما حين افتراقهما، فيصرفان الساعات في الأحاديث المتفرقة والطرائف المضحكة.

كان دينيس معلماً بالفطرة. «علمني دينيس اللغة اللاتينية وقراءة الأنجيل والأشعار الإغريقية. كان واسع العلم والمعرفة دون أن يتحول إلى متحذلق، وجد في كارين ذكاءً يضارع ذكاءه إضافة إلى خيال خصب طبيعي. في الأمسيات كان يتمدد قرب موقد النار يستمع إلى أخبارها الطويلة والعجيبة، كما شهرزاد في ألف ليلة وليلة. «كان يستمع إليّ، فاتحاً عينيه، وأنا أقصّ حتى أنتهي. وعندما كنت أخطىء بإدخال أحد الشخصيات إلى مجرى الأحداث، كان يوقفني ويقول هذا الرجل توفي في أول القصة، لكن أكملي ولا تهتمي.»

ركبا الخيول معاً وخيّما وتمشيا في التلال تحت ضوء القمر. وفي أحد الصباحات الباكرة، اصطدما بقطيع من الجواميس، فأحصيا مئة وتسعة وعشرين جاموساً من خلال الضباب الصباحي. كان دينيس قد علّمها فن التحرّك بهدوء ودون مفاجئات كما الصيادون المحترفون. وفي الليل، كانا يجلسان يتطلعان إلى السماء الأفريقية الصافية. فقد آمنا أنه باستطاعتهما أن يتشاركا في نجمة، وأن المسافة بينهما تضيق إن هما حدقّا في النجمة عينها.

انحصرت مساهماته المنزلية على كماليات الحياة كالنبيذ والكتب واللوحات الفنية والأسطوانات والسيغار. وكان يحب

بعد أن غادرت كارين أفريقيا، كتب إليها صديقها غوستاف موهر يصف لها أمراً غريباً حصل قرب دينيس:

«رفع الماساي تقريراً إلى مفوض المنطقة في نغونغ إذ رأوا عند الفجر والمغيب أسوداً على قبر فينش ـ هاتون في الهضاب. حضر إلى هناك أسد ولبوة ووقفا فوق القبر وقتاً طويلاً. فمن هناك تقدر هذه الأسود على رؤية القطعان في السهول.»

التّمام في العمل، أي عمل، لهذا كانت كارين تلمّع الفضيات وتملأ المنزل بالأزهار عندما يزف موعد عودته وعندما يصل، ترتدي ثوباً متأنقاً من القطن وتعتمر قبعة واسعة. كانت تحب ارتداء الملابس الجميلة، فحين يتوفر المال، تطلبها من أسواق باريس. وفي طريق عودته من أسفاره، كان دينيس ينتقي لها الهدايا الثمينة كفراء النمور كي تفصّلها معاطف وقبعات من باريس.

برغم حبّها لدينيس، وجدت صعوبة في تقبّل غيابه الطويل والمتكرر عنها إذ لم يكن يكاتبها أو يحدد لها ميعاد رجوعه. لم يكن ذلك أنانية منه بل بسبب الصعوبات في الاتصالات عبر مسافة مئات الأميال من السهول في بلد لا يتمتع بتسهيلات بريدية.

ما إن تسمع كارين زئير سيارته الهادسون من بعيد، حتى تجتاحها نوبة من الفرح الغامر. لقد زاد عنصر المفاجأة من نسبة السرور في نفسها حين كل عودة. فلو كانت تنتظره عارفة موعد وصوله، لما كان في الأمر إثارة تكشف أمر اللهفة.

في اللحظة التي يدخل فيها المنزل، تختفي كل مشكلاتها. كتبت لأخيها مرة: «إني واحدة من أسعد الناس على الأرض. برغم كل شيء، أعتقد أن الحياة جميلة جداً والأرض مكان رائع جداً.» لكنه كان يرفض أن تمتلكه أو يمتلكها، أي عرض أن يعيشا حياتين متوازيتين لكن منفصلين. عندما يكون قربها، لا تحسّ بهذه الحدود والفواصل، لكنها تشعر بحب تملك شيطاني في داخلها عندما تعرف أنه سيغادرها قريباً. خلال غيابه، كان يحاول التخفيف من حدّة كآبتها التي يعرف أنها تحسّ بها وذلك بإرسال الأصدقاء إليها بغية كسر رتابة حياتها. تمتعت بالحياة الاجتماعية

البهيجة في المستوطنة لكن خادمتها كامانتي رأتها مرّات عديدة تُخفي رأسها بين ساعديها لتبكي بهدوء، وكتبت في مذكراتها: «في بعض الأوقات، كانت الحياة في المزرعة تبعث على الوحدة، فمتى تفرّ الدقائق من الساعة، تأخذ معها حياتك.» برغم كل ذلك، لم تسمح لهذه العواطف والمآسي أن تسيطر عليها. بقيت في سرّها ترنو إلى الأمان والحب العلني اللذين يؤمنهما زواجها من دينيس، لكنها عرفت حق المعرفة أن ذلك مستحيل الحصول. عندما يعود إلى منزلها، كانت تتأكد أنه سيخرج ثانية لكنه كان يأتي «بالسماء الفسيحة والسهول والغابات.»

في العام ١٩٢٥، انتهت إجراءات طلاقها من بليكس، وأمست تدير وحدها مزرعة البن. ناسبها ذلك جيداً فهي تحب الأرض والناس والعاملين فيها والمعتمدين عليها. لكن متاعبها الرئيسية استمرّت: الجفاف ورداءة المحاصيل، برغم إصرارها على تخطي هذه المتاعب. في هذه الأثناء كانت عائلتها في الدانمارك، حاملة الأسهم في شركة المزرعة، قلقة لحالها. سرّهم انفصالها عن بليكس لدواعٍ مالية ومعنوية لكن المزرعة ما تزال تخسر سنة بعد سنة. عرضوا عليها البيع فرفضت بإصرار إذ شعرت أن حياتها بدأت بهذه المزرعة ولا تحتمل فراقها، فما كان من دينيس ووالدتها إلا أن أقرضاها المال الكافي لإستمرارها.

في ذلك العام، خرج دينيس في رحلة قنص احترافية، لكن اهتمامه في قتل الحيوانات تراجع لصالح اهتمامه في تصويرها إذ أدرك ضرورة المحافظة على الثروة الحيوانية بدل قتلها من بعيد في سبيل البهجة والمتعة. ولو عاش لكان تزعم حركة حماية الثروة الحيوانية التي بدأت بعد حوالي السنة. وفي هذه المرة غاب عن

كارين خمسة أشهر إذ كان يرافق الثري الأميركي باترسون المهتم بالتصوير الفوتوغرافي وحامل المال الطائل.

وعندما وصل أمير ويلز، أدوارد، إلى أفريقيا الشرقية في العام ١٩٢٩ في رحلة قنص، اختير دينيس ليكون دليله. أدت هذه الزيارة إلى قلب الأوضاع الإجتماعية في المستعمرة كلها إذ قامت الإحتفالات على شرفه تعرّف خلالها بأعيانها. كونها مطلقة، لم تتقدم كارين إلى الأمير، لكن البارون بليكس كان تزوج ثانية. وما زاد من مرارتها أنه ثمة الآن بارونتان فون بليكسن.

بالحقيقة، التقاها الأمير حين قرر التجول في مزرعتها دون إعلامها ومشاهدة الرقص الأفريقي المثير. قبل حضورها إلى أفريقيا، تعلمت كارين الطبيخ على يد طباخ فرنسي شهير وعلّمت خادمتها كامانتي ما تعرفه، فتناول الأمير طبق أصداف بحرية رائع المذاق.

إصطاد الأمير وأخوه حيوانات رائعة بعد أن اصطحبها دينيس إلى تنزانيا بحثاً عن الأسود. وعندما وقع الجميع في مأزق عدم العثور على هذا الحيوان، طُلب بليكس لانقاذ الموقف، وهو الذي يعرف تانزانيا كظاهر يده. ولم تمرّ أيام حتى كان الأميران يلتقطان الصور لبعضهما وتحت أقدامهما أسد أفريقي رائع. وبعد هذا الحدث، مرض الأمير واضطر للمغادرة فوراً. دعي دينيس إلى مرافقة الأمير إلى انكلترا لكنه امتنع عن ذلك بحجة قضاء عيد الميلاد بصحبة كارين.

لم تكن الحالة في نغونغ سارة. وقعت المزرعة تحت ديون جديدة، ووقعت كارين تحت ضغوط المساهمين كي تبيع. لكن إصرارها على الاحتفاظ بها وبالأفارقة الذين يعتمدون عليها دفعها على التأكيد أنها ستجعل منها مشروعاً مربحاً عن طريق تحويلها

إلى مزرعة للمحاصيل المختلفة وللماشية والدواجن. لكن هذا المشروع يحتاج إلى كل أراضي المزرعة، ما يعني طرد هؤلاء الساكنين هناك، ولم تكن على استعداد لفعل ذلك. وصلت الأمور إلى حافة الانهيار معتمدة على نجاح محصول عام ١٩٢٩. وفي هذا العام كان دينيس في انكلترا يعيد التمارين على الطيران، وكارين في الدانمارك تهتم بأمها المريضة. وصلتها أخبار المزرعة التي أفادت أن صقيعاً في أيار أودى بالثمار اللبّية. وفي تشرين الأول/ أكتوبر، انضمت إلى دينيس في بريطانيا وتعرّفت بعائلته التي لم تتحمّس لها ولعلاقتها بإبنها.

عندما عادت إلى مومباسا، علمت أن انتاجها لم يتجاوز الأربعين طناً بينما تحتاج هي إلى ستين لتضمن استمرارها. فأدركت أن أيامها الزراعية معدودة. وعندما عاد دينيس إلى نيروبي، أتى بطائرته الجديدة ذات المقعدين. بُني مدرج صغير في المزرعة وأخذ دينيس كارين وطار بها. نظرت إلى مزرعتها من الجو وتحسّرت على الأيام التي قضتها في هذا المكان وحيدة، ووجدت أن الكوارث جميلة أيضاً.

عندما غادر دينيس برفقة المليونير الأميركي وزوجته، قررت كارين أن تقوم بمحاولة أخيرة لإنقاذ مزرعتها، فكتبت له تطلب عونه لكنه رفض ذلك. فأدى رفضه إلى بيعها بالمزاد العلني فاشتراها رجل الأعمال ريمي مارتين بغية تحويلها إلى ضاحية سكنية راقية، وقرر إطلاق إسم كارين على الناحية كلها تخليداً لإسمها.

الخلاص من المزرعة أراح دينيس من ارتباطه بكارين. في روايتها «خارج أفريقيا»، التي كتبتها بعد سبع سنوات، روت كارين أن دينيس انتقل ليعيش في منزل في نيروبي إذ أزعجه بيتها المليء

بالصناديق والأمتعة الموضبة والغرف الفارغة. لكن أصدقاءهما كانوا يعرفون أنه تخلّى عنها في سبيل امرأة أخرى. وكانت هذه الأخرى بيريل ماركهام التي أمست أول من عبر الأطلسي جواً من الشرق إلى الغرب. أحبّت دينيس لسنوات طويلة لكنها لم تكن لتقف في وجه كارين بليكسن. وفي إحدى الليالي، وصل دينيس إلى المزرعة ليتناول العشاء، طالبها بالخاتم الذهبي الرائع ووضعه في إصبعه، لأنه، بحسب كارين، خاف أن «أعطيه لشخص ما، كان ذلك قبل أيام من توجهه إلى مومباسا، ودفن الخاتم معه.»

كان دينيس يتحضّر لرحلة تصوير برفقة باترسون. أرادت كارين الطيران معه إلى مومباسا لكنه رفض محتجاً بأنه قد يضطر إلى قضاء ليله في العراء ولهذا يحتاج لخادم.. وبذلك لا متسع لها في الطائرة. وفي ١٠ أيار/ مايو ١٩٣١، غادر دينيس إلى مومباسا برفقة خادمه كاماو الذي يكره الطيران. وحين كان يهبط اصطدمت المروحة الأمامية بصخرة ما فتعطلت.. طلب قطعة غيار من نيروبي واستبدل القديمة بجديدة. وطار ليحطّ بعد ساعات قرب صديقه مفوّض المنطقة. حاولت زوجة هذا المفوض أن ترافق دينيس في رحلة قصيرة لكن ابنها الصغير تعلق بها ومنعها. وما إن طار متوجهاً صوب نيروبي حتى انفجر محرك الطائرة واندلع فيها حريق فسقطت بعيداً ليتصاعد منها عامود دخان طويل. وصلت الأنباء إلى نيروبي قبل نغونغ، وكانت كارين في المدينة تتسوّق فعلمت هناك بالخبر المفجع.

دفن دينيس في هضاب نغونغ، وعوملت كارين كأرملته وبقيت في المزرعة أسبوعين تصعد إلى السطح لترى من هناك إلى قبره.

بعد موته، غادرت كارين أفريقيا نهائياً لتبدأ كتابة روايتها التي تحوّلت إلى عمل كلاسيكي أخرجته إلى العلن بإسم إسحق دينيس. ونشر «خارج أفريقيا» في العام ١٩٣٧ ونال الثناء لما يحتويه من ذكريات حميمة في كينيا. لم تُشر إلى حبيبها مباشرة بل لمحت إليه تلميحاً في خضم الأحاديث المسهبة عن الأفارقة والمستعمرين البيض أصدقائها.

بعد موتها، توضّحت الصورة تماماً حين نشرت رسائلها ومذكراتها. وخلال الحرب العالمية الثانية، احتل الألمان الدانمارك وصدر كتابها الثاني «قصص الشتاء» عام ١٩٤٢، «The Angelic Avenger» عام ١٩٤٤ الذي كان كتاباً مضاداً للأديولوجية والإعلام النازيين. فازدادت شهرتها حتى مماتها عام ١٩٦٢.

ولولا انكشاف أمر علاقتها مع دينيس فينش ـ هاتون، لكان اسمها مجهولاً حتى اليوم.

١٠

سكارليت وريت

في صباح أحد أيام نيسان/ أبريل ١٩٣٥، وصل نائب رئيس شركة ماكميلان للنشر، هارولد لاثام، إلى أتلانتا، جورجيا، بحثاً عن كُتّاب جديدين. خلال العشرينات، انقلبت أميركا إلى أمة من القراء، وازداد عدد الناشرين دون الكتب الجديدة. لهذا، كان قرار لاثام الذهاب إلى الجنوب ليفتش عن الكتّاب الذين لم ينشروا مؤلفاتهم بعد.

لم تكن رحلته قد انتجت نتائج مرضية، فالمخطوطات التي استلمها لم تكن لتُقرأ. فجلس في غرفته بالفندق واتصل هاتفياً بمكاتب ماكميلان في أتلانتا، لكن أمله خاب عندما أخبروه أنهم لا يملكون مخطوطاً يمكن أن يُعرض عليه.

حاول لاثام الاتصال بمكاتب الشركة في نيويورك والتحدث إلى لويس دوايت كول التي كانت يوماً ما ممثلتهم في أتلانتا. هل تعرف كاتباً في أتلانتا؟

«حسناً، ثمة بيغي ميتشيل مارش، أعرف أنها كانت منكبة على العمل في رواية حول الحرب الأهلية منذ زمن طويل، لكنها،

ولسبب في نفس يعقوب، ترفض أن يراه أحد.» هذا كان جواب لويس الساخر.

سألها لاثام: «من هي؟»

أجابت: «عملت منذ عشرة أعوام في مجلة «أتلانتا جورنال» وحازت الشهرة والإعجاب. تزوجت وزوجها هو الوحيد الذي رأى مخطوط روايتها هذه.» ودلّته على طريقة الاتصال بها من طريق ميدورا وزوجها أنغوس بيكيرسون، رئيس تحرير مجلة «أتلانتا جورنال»

شاءت الصدف أن يتناول لاثام طعام غداء اليوم التالي برفقة آل بيكيرسون فاتصل بميدورا في مكتبها وسألها إن تستطيع اقناع بيغي مارش بالحضور ومشاركتهم الغذاء. فوعدته أن تحاول دون أن تعده بتحقيق أمنيته، إذ أنها «لا تخرج كثيراً هذه الأيام».

وجدت ميدورا حجة جداً لإقناع بيغي. فزوجها أنغوس اضطر أن يعتذر عن عدم الحضور، فسألت بيغي أن ترافقها كمضيفة مساعدة.

عندما التقى لاثام بيغي مارش، اعتقد أن في الأمر خطأ أو سوء فهم. فهي تبدو في العشرين من العمر، جميلة وأقل من خمسة أقدام طولاً. أثناء الغداء، كان كلامها ذكياً وجذاباً يتمتع بالفكاهة والطرائف المشينة التي أدهشته.

في نهاية الغداء، قال لاثام إنه سمع عن كتابتها لرواية ما، فأجابت دون أن تنظر في عينيه: «لا أملك أي رواية.» وعندما خرجا إلى السيارة، أعاد طرح الموضوع، فاعترفت أنها تكتب رواية لكن الوقت ما يزال مبكراً للحديث عنها، وأضافت أن موضوع أحداثها يدور في الجنوب، وأنه لن يلقى رواجاً أبداً إذ يتناول امرأة

تعشق زوج امرأة أخرى. وعندما قال إنه يريد إلقاء نظرة على مخطوط الرواية فأجابت إنها ستفعل إن أكملتها حتى نهايتها.

في اليوم التالي، جمعت بيغي مارش مجموعة من الكتّاب الواعدين واصطحبتهم لتناول الشاي ولاثام. وعندما سألها ثالثة عن روايتها نفت أن يكون بحوزتها مخطوط ليراه. لكن عندما قالت إحدى الكاتبات المحدثات إنها تعتقد بيغي غير صالحة لكتابة الروايات الجيدة، أسرعت إلى بيتها وانكبت على آلتها الكاتبة حتى الصباح، وركضت إلى الفندق حيث لاثام وأخبرته أنها أحضرت مخطوطها.

عندما نزل من غرفته ونظر إلى الأوراق المكدّسة، أصيب بصدمة كبيرة. احتاج إلى شراء حقيبة متوسطة الحجم لتتسع أوراق المخطوط. وحين استقر في مقصورته على متن القطار الذي ينقله إلى نيويورك، فتح المغلف الأول وحاول أن يقرأ ما يتيسّر له من الفصل الأول، لكن وجد صعوبة كبيرة في ذلك بسبب التشابك في الاستعاضات والاستبدالات في الجمل والتعابير. كان يمكن أن يعيده إلى الحقيبة ليرسله ثانية إلى كاتبته في نيويورك لكي تُعيد تنظيمه. لكن بما أن لا شيء يشغله الآن، وبسبب فضوله، بدأ يشق طريقه بين السطور. انقضت ساعات عديدة دون أن يرفع عينيه عن المخطوط، الذي سيصبح رواية عنوانها «ذهب مع الريح».

بعد أسابيع قليلة، تعرضت بيغي مارش لحادث سيارة هو الثاني لها خلال عام واحد، ثم، بعد أسبوعين، وقعت زجاجة كحول من يد نادل في أحد المطاعم على رأسها ففقدت الوعي. بعد هذين الحادثين، قررت أن تغادر العمل من جديد حول روايتها. أرسلت إلى لاثام تطالبه بإعادة المخطوط إليها، لكنه أرسل إليها بدل ذلك



مارغريت ميتشيل مؤلفة كتاب ذهب مع الريح

برقية يطلعها فيها أن ماكميلان متأثر بروايتها «التي ستلاقي النجاح الباهر» وأنه سيرسل إليها ٥٠٠ دولار، نصفها عند توقيع العقد والبقية عندما تُرسل إليه نهاية المخطوط.

ترددت بيغي في قبول العرض، لكن زوجها أرسل موافقتها إلى لاثام ما إن عاد إلى منزله من العمل.

في شباط ١٩٣٦، أعلن ماكميلان لائحة منشوراته واضعاً

«ذهب مع الريح» في المقدمة. عندما وصلت الرواية إلى ايرفينغ ثالبورغ، قال للويس ماير صاحب شركة (MGM) الهوليودية للسينما: إنسَ أمر هذه الرواية.فأي فيلم سينمائي عن الحرب الأهلية لم يدر أرباحاً أبداً وكان محقاً تماماً.

اعتمدت بيغي لنفسها مديرة أعمال تدعى آني لوري ويليامز التي رفضت عرض جاك وارنر، من شركة وارنر أخوان، ٤٠ ألف دولار مصممةً انها لن تتقاضى أقل من ٦٥ ألفاً. وفي ١٥ نيسان ١٩٣٦، اختير «ذهب مع الريح» كتاب الشهر فتوجهت إليه أنظار صنّاع السينما ثانية. ولم ينقضِ شهر أيار/ مايو إلا وظهر جلياً أن الرواية ستلاقي نجاحاً منقطع النظير إن تحولت إلى فيلم سينمائي، فقام لاثام بدفع خمسة آلاف دولار أخرى لبيغي التي لم تكتب بعد هذا الكتاب شيئاً أبداً. فهي وضعت كل حياتها فيه، فانتهت حياتها هذه بنشره.

ولدت مارغاريت مونيرلين ميتشيل في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٠، في أتلانتا، من أم فرنسية الأصول وأب اسكتلاندي الأصول. كان أوجين ميتشيل محامياً متخصصاً في القضايا العقارية، يهوى تاريخ الجنوب الأميركي. وكانت زوجته مايبل صغيرة قادرة على اتخاذ القرارات تهوى العمل السياسي. ورزقا بولدين، ستيفينز في العام ١٨٩٥ ومارغريت (أو بيغي) بعد خمسة أعوام - ورثت مارغريت تصميم والدتها وميلها إلى الأنانية.

ترعرعت بيغي صاخبة تحب ألعاب الصبيان. أعجبت بأخيها وهوت أن ترافقه في ألعابه مع أصدقائه كأن تشاركهم الحرب بكرات الوحل. كما كانت ميالة للحوادث، وهذا يفسّر كيف تحوّلت إلى الكتابة. ورثت من أبيها حب التاريخ فدرسته أثناء

بقائها في الفراش لتتعافى من الحوادث التي تحصل لها. حين كانت في العاشرة، وقعت عن ظهر الحصان فتضررت قدمها فاضطرت إلى أن تمشي عرجاء لفترة طويلة. وخلال الفترات الفاصلة بين حادث وآخر ابتدأت في العمل في الرواية «ذهب مع الريح».

في عمر الخامسة، وبعد يومها الأول في المدرسة، أخبرت والدتها أنها كرهت علم الجبر، والمدرسة كلها، لكن مايبل ميتشيل كانت مدركة أن العلم هو السلاح الوحيد الفاعل في العالم المتغير. في اليوم التالي، عادت مارغيت إلى المدرسة بفضل إصرار والدتها، لكنها لم تهمل أبداً هوايتها الأدبية.

عندما بلغت السادسة عشرة، أمست صبية حسناء دون أن تتخلى عن إفراطها في الكلام وعن حبها إعطاء الأوامر. بدأ الشبان ينظرون إليها بعين الإعجاب. وحين دخلت أميركا في الحرب العالمية الأولى في نيسان/ أبريل ١٩١٧، انضم أخوها إلى الجيش. تعلمت هي قيادة السيارات وامتهنت نقل الجنود من مخيمات التدريب وإليها. وبرغم تحررها وثورتها، لم تتجاوز علاقتها العابرة مستوى القبل أبداً.

في العام ١٩١٨، التقت الملازم كليفورد هنري القادم من نيويورك. فاقتنعا أنهما يحبان بعضهما بعضاً وأقاما علاقة سرية على شرفتها، قبل أن يبحر هو إلى أوروبا.

وبعد ذلك، انتقلت مارغريت إلى كلية سميث في ماساشوسيتس، وقررت دراسة الطب. وبعد ثلاثة أسابيع من وصولها إلى الكلية، أتاها نبأ موت كليفورد خلال إحدى المعارك. تؤكد آن إدوارد التي نقبت فيما بعد عن تاريخ هذا الضابط أنه كان شاذاً جنسياً يكره النساء.

عاد ستيفينس سليماً من الحرب. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩١٩، توفيت مايبل ميتشيل لإصابتها بذات الرئة. ولم تمضِ شهور على وصولها إلى كلية سميث، قررت مارغريت العودة إلى أتلانتا للعناية بأبيها وبأخيها.

في آب/أغسطس ١٩٢٠، ذهبت مارغريت ـ وكانت تفضل وقتها أن تدعى بيغي ـ إلى إحدى الحفلات التنكرية مرتدية ثوب فتاة صغيرة يعود إلى حقبة ما قبل الحرب الأهلية الأميركية. التقت هناك رجلاً طويلاً جداً يدعى بيرين كينارد أبشو، المعروف بإسم ريد. كان لاعب كرة قدم مشهور يشبه بوريس كارلوف عندما لعب دور مسخ فرانكينشتاين. برغم ذلك، طاردته النساء وكأنه الأوسم في الحفلة.

أحسّا بانجذاب، الكل نحو الآخر، فرقصا طيلة الليلة بلباسها القديم وبزي القرصان الذي ارتداه. وعلمت بعد حين أن هذا الزي ناسبه تماماً إذ اعتقلته قوات الأمن بتهمة تهريب الكحول الممنوع.

لم تعجب صديقات بيغي بهذا الرجل الخشن الذي يدمن الكحول والنساء، لكن بيغي لم تستمع لهن أبداً، حتى أنها انغمست معه في الشراب والتدخين ورواية الطرائف المشينة فصدمت نساء أتلانتا.

في الخريف، قرر ريد أبشاو أن يغادر المدرسة ويتحول إلى مهرب بدوام كامل. فتسبب ذلك بخلافهما وافتراقهما. ومضت سنتان قبل أن يلتقيا من جديد في أحد النوادي، فقدمها حينذاك إلى شاب يشاركه مسكنه ويدعى جون مارش. كان هذا هادئاً رصيناً أحبه أبوها بمقدار كرهه لريد أبشاو، ووقع في غرامها سريعاً. سرّت بيغي عندما علمت أن الرجلين يتسابقان على الفوز بها، فما

كان منها إلا تحريضهما الواحد ضد الآخر. وعندما ملاّ من ملاحقتها معاً، بدأا يقذفان بقطعة نقود معدنية من أجل تحديد من سيقضي معها القسم الأول من السهرة ومن سيمضي معها الساعات الأجمل في نهاية السهرة.

واجهت بيغي مشكلة كبيرة. كانت خضعت في بعض الأوقات لشهوات أبشاو الجنسية لكنها تذكرت كاثوليكيتها المحافظة. وصدّته. استسلم ريد أبشاو لمشيئتها وقرر المخاطرة بالزواج منها إن كان ذلك ثمناً لامتلاكها. فتزوجا في ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٢، ووافق جون مارش الشهم أن يكون الإشبين والشاهد على عقد القران.

وبعد الزفاف مباشرة، ذهب العروسان إلى منزل أبشاو ثم سافرا في اليوم التالي نورث كارولينا للقاء أهله. لكن هذا الزواج لم يدم طويلاً دون أن تنكشف أسباب انتهائه. لربما كان الملل تسلل إلى نفس أبشاو وهو المغامر. عادا إلى أتلانتا واستقرا في منزل عائلة بيغي مع أبيها وأخيها. دفعت بيغي زوجها ليبحث عن عمل دائم لكنه لم يستسغ هذه الفكرة وبدأت متاعبهما..

كتبت عما تواجه من مشكلات إلى جون مارش الذي أمسى محرراً في إحدى صحف واشنطن. وعندما سألته العودة إلى أتلانتا، عاد وحاول أن يصلح ما بينها وبين زوجها، لكن الأوان قد فات، وقررا الانفصال والطلاق بعد ثلاثة أشهر من زواجهما.

قررت بيغي البحث عن عمل، فأقنعت «أتلانتا جورنال» أن تتخذها مراسلة لها. وخلال عام واحد، أمست المراسلة الأولى، تهوى لقاء الناس وتعرف كيف تدفعهم إلى الكلام، كما تحس بلذة رائعة عندما تدور في البلاد وتلتقي الغرباء.

توثقت علاقتها بجون مارش وتجاوز حدود الصداقة دون أن تتحول إلى علاقة جنسية. فكان يقرأ وينشر مواضيعها بعناية. وفي أحد أيام تموز ١٩٢٣، عادت إلى بيتها لتجد ريد منتظراً أمام الباب، فأدخلته وعندما حاول مضاجعتها صدّته فضربها دون أن يعرف إن كان اعتدى عليها. هبّت خادمتها بيسي عندما سمعت صراخها فاصطدمت بريد أبشاو يفر خارج المنزل. وقبل أن يغادر، استدار وضرب بيغي التي لحقت به شاتمة في وجهه. فكانت النتيجة بقاءها في المستشفى طوال أسبوعين.

بعد أن ضرب زوجته، أسرع أبشاو إلى جون مارش يخبره ما فعل ويستدين منه مالاً. وعندما اكتشف مارش مدى الأضرار التي لحقت بها، اشترى لها مسدساً وعلمها استعماله.

تمّ الطلاق النهائي في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٤. في هذا الوقت، استمرت بيغي في عملها الصحفي وفي تدعيم موقفها كوجه اجتماعي مشهور. حاورت عدداً من نجوم الأفلام أمثال رودولف فالنتينو الذي حاول اصطحابها إلى غرفته دون أن يوفق إلى ذلك.

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤، أصيب جون مارش بعارض صحي غريب إذ تملكت منه الحازوقة أسبوعاً بعد أسبوع، فأسرع أخيراً إلى المستشفى. وبعد شهر من العلاج، كان التعب قد حوّله إلى رجل في النزع الأخير واضطره للبقاء موصولاً إلى جهاز الأوكسيجين للتنفس الإصطناعي. وبعد ٤٢ يوماً تمكن من البوح لها بحبّه الكبير فاعترفت بمشاعرها المماثلة، وتزوجا في ٤ تموز/ يوليو ١٩٢٥.

بسبب مرض جون وفواتير المستشفى الباهظة، وقع جون وبيغي



كلارك غيبل وفيفيان لي في فيلم ذهب مع الريح

في عجز مالي وتحت وطأة ديون كثيرة. انتقلا إلى منزل صغير حيث ثبتت بيغي في إحدى زواياه آلة كاتبة استخدمتها لكتابة سلسلة تحقيقات على جنرالات الحرب الأهلية قرأها رئيس تحرير «أتلانتا جورنال» بحماسة وإعجاب انتقلا إلى عقل القراء جميعاً.

تؤكد كاتبة سيرتها، آن إدواردز، أن حالتها الصحية كانت على خير ما يرام طالما احتفظت بعملها في المجلة، برغم كميات الكحول والسجائر التي تناولت. لكن ما إن تقاعدت في العام ١٩٢٦، بدأت الأمور تسوء فقررت أن تنغمس في الكتابة والتأليف. بدأت برواية عن عائلة جنوبية أرستقراطية في حال تقهقر. كانت البطلة غارقة في حب إبن أحد العبيد. وبعد مقتل حبيبها، أجبرها الجيران على مغادرة بيتها. اعتقدت أن روايتها جيدة لكن زوجها لم يوافقها الرأي، وقال إنها مليئة بالأخبار الرائعة لكنها في مجملها

فاشلة تماماً. فاكتأبت وتعرضت لحادث سيارة عندما تزحلقت بسبب المطر واصطدمت بإحدى الأشجار. التوى كاحلها فاضطرت إلى التزام الفراش مدة طويلة، وإلى قراءة الكتب الموجودة في مكتبة المحلة، وتتمحور كلها حول الحرب الأهلية الأميركية. في أحد الأيام، وصل جون إلى البيت دون كتب لكنه حمل حزمة من الورق الأبيض، وقال: «لقد قرأت معظم الكتب المرصوفة على رفوف المكتبة. فإن أردت المزيد من القراءة، عليك كتابة الكتب بنفسك.»

في اليوم التالي، جلست خلف آلتها الكاتبة وابتدأت بالجملة التالية: «لم تعرف أبداً مَن مِن الرجلين تحب فأضاعتهما معاً».

كانت تلك بذرة «ذهب مع الريح»

انهمرت عليها الأفكار وفاضت حبراً على الورق وكأنها نهر طوّاف. وفي بعض الفصول، لم تكن لتتأكد من نهايتها فتبتدع نهايات عديدة أو تتركها لتنتقل إلى فصول أخرى دون أي انتظام. استمرت في انتاج ٢٠٠٠ كلمة يومياً فتكدست ألأوراق والملفات وضاقت بها الغرفة.

لا مفر من الاعتراف بأن الرواية تدخل باب السيرة الذاتية. فبانسي أوهارا كانت مارغريت ميتشيل كما رأت نفسها، جذابة قوية ومستقلة الإرادة. وقعت في حب آشلي ديوكس الذي وضعته مشابهاً تماماً لكليفورد هنري. في بداية الرواية، تكتشف بانسي أن آشلي تقدم للزواج من قريبته ميلاني، فكانت ردّة فعلها السعي إلى الزواج من شارلز، شقيق ميلاني. وبعد عام، قتل شارلز في الحرب الأهلية، فقصدت ميلاني الحامل أقاربها في أتلانتا لكنها نجحت في العودة إلى مزرعة أبيها تارا، حين قامت قوات الجنرال شيرمان

بإحراق أتلانتا، لتجد أباها قد جنّ جراء الصدمة ولتفاجأ بموت والدتها.

تقرر سكارليت إنقاذ تارا مهما كلّف الأمر، وتضطر إلى التأقلم وعيشة الغابات وشريعتها. وعندما توجب عليها دفع ضريبة تبلغ ٣٠٠ دولار، لم تتردد في الزواج من فرانك كينيدي الذي كان خطيب أختها سوالين، ومالك أحد المخازن التجارية. ثم اقترضت مالاً من ريت باتلر من أجل شراء منشرة أخشاب أمنت لها فيما بعد الإستقرار المالي.

قتل اليانكي زوجها فتزوجت ريت الذي جنى ثروة لا بأس بها بفضل تجارة التهريب إلى داخل المدن المحاصرة أثناء الحرب. برغم ذلك، بقيت صورة آشلي ريوكس في مخيلتها وحبه في قلبها. حين أدرك ريت أنها تزوجته طمعاً في ماله، تقلص حبه لها واختفى. وعندما قرر أن يهجرها، أخبرته أنه رجل حياتها ولا تهوى سواه.. أجابها وهو خارج من الباب، «لست أهتم لكل ذلك»، فأقسمت أن تعيده إلى حياتها ثانية.

لم يؤدِ نجاح وانتشار «ذهب مع الريح» إلى إسعاد بيغي، فكانت حياتها وحياة زوجها عامرتين بالفوضى. إلى ذلك، انتهت مهنتها ككاتبة بنشر الكتاب ورواجه. وفي أحد الأيام، تلقت اتصالاً من ريد أبشاو فاجأها فيه بسؤالها إن كانت ما تزال تحبه.. وعندما أرادت أن تعرف ما السبب الذي دفعه إلى هذا الاعتقاد قال: «لأن ريت باتلر نموذج صريح عني»

خافت أن يفضح سرّ زواجهما للصحافة، وبعد أن انتهت من حوار دام ثلاث ساعات مع مراسلي أسوشايتدبرس، استقلت سيارتها وقصدت مكاناً جبلياً نائياً وجهت منه رسائل إلى الصحف

تخبرهم أنها هاربة من أهوال الشهرة. ثم كتبت إلى الناقد إدوين غرنبيري فدعاها فوراً للإستقرار في بيته. قصدته في هيكوري، نورث كارولينا حيث اعتقد أنها سترتاح ولن يتعرف إليها أحد.

الحدث العظيم في حياتها كان إعلان دايفيد أوسيلزنيك نيته انتاج فيلم «ذهب مع الريح». اختير كلارك غايبل فوراً ليلعب دور ريت باتلر وفيفيان ليغ لدور سكارليت أوهارا. لكن الفيلم اصطدم بسلسلة عقبات في السناريو وفي التمويل.

لكن الفيلم وجد طريقه إلى الظهور على شاشات السينما لأول حفلة في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٩، فاشتهر واشتهرت سيرة بيغي بفضله. لكنها لم تعرف ما تعمل بكل هذه الشهرة التي جنتها وبقيت قلقة على أوضاعها المالية.

اندلعت الحرب، فانضمت إلى أحد المعسكرات تهتم بالجنود وتهبهم المعنويات العالية. لا مبالغة في القول إنها سعدت بالحرب أكثر مما أسعدها رواج روايتها.

توفي والدها في العام ١٩٤٤، فحاولت أن تعود إلى الكتابة لكن الكآبة التي أصابتها أعجزتها عن ذلك. وتلا ذلك مرض زوجها جون واضطراره إلى دخول المستشفى في عيد الميلاد عام ١٩٤٥.

بحلول العام ١٩٤٨، كان «ذهب مع الريح» في مقدمة الكتب الأكثر مبيعاً، لكن رسائل المعجبين توقفت. لا بد أن الناس اعتقدوا أن كاتبة هذه الرواية الرائعة عجوز أو ميتة فاستراحت من الاضطراب الذي كان يسيطر عليها.

صرفت أيامها تعتني بزوجها الذي عجز عن الحركة. وفي ١١ آب/ أغسطس ١٩٤٩، أخرجته إلى أحد المسارح لحضور فيلم.

أوقفت سيارتها قبالة المسرح وأمسكت بجون من تحت أبطه تساعده على جرّ قدميه لقطع الطريق.. كان ذلك قراراً خاطئاً جداً فقد أتت سيارة مسرعة حاولت تفادي جون الذي وقع في وسط الطريق فصدمت بيغي التي حاولت العودة إلى الوراء وقذفتها سبعين متراً. وبعد خمسة أيام، توفيت، في المستشفى متأثرة بجراحها البليغة. لطالماعتقدت مارغريت ميتشيل أنها ستموت خلال حادث سيارة..

١١

زيجات السود والبيض

قصة حب سيريتسي خاما

بدأت النسخة الأفريقية من رواية دوق وندسور في لندن عام ١٩٤٧ عندما وقع نظر الأمير سيريتسي خاما، سليل عائلة نبيلة تعود جذورها إلى القرن السابع عشر، على روث ويليامز، ابنة رحالة تاجر، وذلك في إحدى الحفلات الراقصة.

منذ أن ولد سيريتسي (أي الأرض الحمراء)، بدأ تحضيره ليكون ملكاً في المستقبل، خصوصاً أنه كان وقت انتقال البلدان الأفريقية من حالة الاستعمار إلى الإستقلال الناجز. أرسل إلى أحسن المدارس والجامعات في أفريقيا ثم إلى كلية باليول في أوكسفورد ليدرس القانون. وكان يتحضر لإنهاء مقررات شهادته عندما التقى بالشقراء الجميلة الآتية من جنوب لندن.

وبعد مضي سنة، في تشرين الأول ١٩٤٨، صدم الأمير سيريتسي وزارة الخارجية البريطانية عندما أعلن نيته الزواج من الفتاة الأنكليزية. فالزيجات المختلطة في بريطانيا كانت ما تزال نادرة



الأمير سيريتسي خاما وزوجته الإنكليزية روث

الحصول لكن مقبولة، أما في أفريقيا الجنوبية، حيث تقع بوتسوانا، كان الزواج بين الأعراق المختلفة كارثة سياسية. لم يكن سبب ذلك رفض الشعب البوتسواني أن تتربع على عرشهم ملكة بيضاء إذ بعد أن استفاقوا من صدمتهم الأولى فرحوا لذلك الأمر. ربما لم تكن تصل إلى مصاف الأمير أو إلى مستواه الإجتماعي والسياسي، لكن إعلان الأمير أنه يحبها ولن يتخلى عنها دفعهم إلى قبول الأمر. لكن ذلك لم يرق لجارتي بوتسوانا المحكومتين من نظامي تمييز عرقي: روديسيا وجمهورية جنوبي أفريقيا، فرفضت حكومتهما

هذا الزواج إذ اعتقدنا أن الناس ستحذو حذو الأمير فتكون النتائج مهولة.

كانت المسألة تتجاوز علاقة حب عادية إذ بوتسوانا محمية بريطانية، وقرار السماح لسيريتسي باعتلاء العرش وإلى جانبه ملكة بيضاء يعود إلى الحكومة البريطانية. فوراء الكواليس في وزارة الخارجية، كان الجميع متأكداً أن جمهوريتي جنوب أفريقيا وروديسيا ستبادران إلى اجتياح بوتسوانا إن اعتلت روث العرش. فهما يتطلعان منذ زمن إلى تحويل خيرات هذا البلد المعدنية إلى مصانعهما لكن بريطانيا كانت تصدّهما وتمنعهما من اجتياح بوتسوانا، خصوصاً أن شعبها يرفض بإصرار ويسأل: «هل يضع الأرنب في فم الأسد؟»

عندما التقى سيريتسي روث، كان في السادسة والعشرين حسن البنية وسيم الوجه، ذكياً ومتواضعاً، وكثير الخجل عندما يحادث النساء. بخلاف أصدقاء، لم يتخذ خليلة أبداً، وتطلب أن يعبر الغرفة ليحادثها جهداً كبيراً. فكان الحب من النظرة الأولى خصوصاً بعد أن اكتشفا قواسم مشتركة بينهما كالرياضة وموسيقى الجاز.

خلال الشهور التالية، صرفا وقتاً طويلاً معاً، فوجد فيها مرافقة تفهمه كان يعوزها في حياته السابقة. فقد توفي والداه وهو بعد صغير، فتربى في بيوت قبيلته. كان يعرف دائماً أن مسؤوليات جسيمة تنتظره فاجتهد في الدراسة. برغم تفضيله كرة القدم على اللغة اللاتينية، وفي استقاء المعلومات السياسية من عمه تشيكيدي الذي يحكم في انتظار أن يصبح هو مؤهلاً لذلك.

كانت روث تصغره بسنتين. فقد ولدت وترعرعت في ضاحية

بلاكهيث اللندنية. اندلعت الحرب االثانية وهي في السادسة عشرة فانتقلت إلى ريف سواري لتتجنب قصف الطيران الألماني. مرضت هناك فعادت إلى عائلتها في لندن، حيث انضمت إلى منظمات المساعدة النسائية تقود شاحنات المساعدات وسيارات الإسعاف. وفي نهاية الحرب، عملت في مكتب لشركة لويدز للتأمين في المدينة. وبعد سنتين، حضرت ذلك الحفل الراقص فالتقت بالرجل الذي سيصبح زوجها.

في حزيران/يونيو ١٩٤٨، بعد سنة كاملة على لقائهما، سألها سيريتسي أن تقبل الزواج منه، فقبلت طلبه وبدأ تحضير الإجراءات في أوائل أيلول/ سبتمبر. في هذه الأثناء، انتقل سيريتسي إلى شقة صغيرة في «مامدين هيل غاردنر»، وتحدد موعد الزواج في الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر في كنيسة القديس جاورجيوس القائمة في نهاية الشارع.

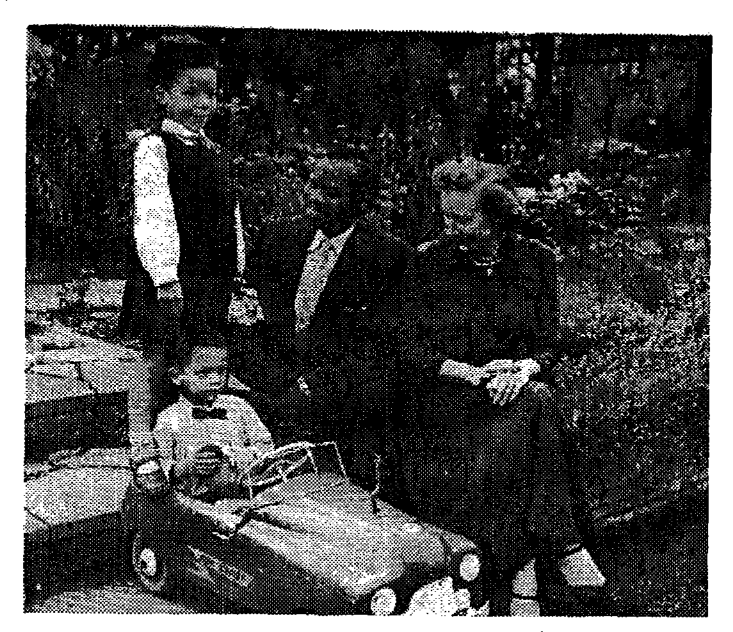
رفض والد روث هذا الزواج، كذلك فعل عم سيريتسي.

في أيار/مايو ١٩٧٩، بعد سنوات طويلة من عودته من المنفى، قام سيرتيسي بإغضاب حكومة جنوب أفريقيا ثانية. ففي قمة رؤساء الدول الأفريقية، كان النقاش يدور حول مسألة استقلال ناميبيا. طالبت حركة (SWAPCO) المؤيدة لاستقلال ناميبيا باستلام جنوب أفريقيا دون انتخاب. قال سيريتسي إن ذلك ليس ديمقراطياً أبداً إذ سيؤدي إلى رفض جنوب أفريقيا التعاون «لا أريد أن تتحمل (SWAPCO) مسؤولية انهيار المفاوضات. بل أريد أن تكون جنوب أفريقيا الزنجي في كدسة الحطب». سرّ الزعماء الأفارقة لهذا التعبير. لكن بيك بوتا، وزير خارجية جنوب أفريقيا اعتبره إهانة وحاول أن يجعل من ذلك أزمة سياسية.

الأول خوفاً على ابنته التي سترافق زوجها إلى مجاهل أفريقيا، والثاني قائلاً إن على الأمير انتقاء زوجته - أو زوجاته - من بين نساء القبائل الأرستقراطية. أدرك سيريتسي أن قراره هذا قد يحرمه من الحكم والعرش في بلده، لكنهما صمما على الزواج.

في منتصف أيلول/سبتمبر ١٩٤٨، استجمع سيريتسي شجاعته وكتب إلى عمه يخبره أنه لن يتخلى عن روث وأنه مستعد للحضور إلى بلده متى أمره بذلك. أتى الرد سريعاً: «تحضر للمغادرة حين إشارتي، ونناقش هذه المسألة بعد وصولك.» أدرك سيريتسي أن عودته إلى بلده قبل الزواج من روث قد يحرمه منها إلى الأبد، فأسرع في الرابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر إلى الكاهن واتفق معه على عقد القران في اليوم التالي. لكن التدخلات والضغوطات أثرت على الكاهن. فحين حضر سيريتسي وروث يرافقهما شاهدان إلى الكنيسة، علما أن الزواج قد ألغي. كانت روث قد تركت مسكنها، فسألت الكاهن «هل تدفعني الكنيسة لأعيش في الخطيئة؟» فكان الجواب نعم. لكن الزواج تم بعد أيام قليلة سراً في مكتب سجلات كينسينغتون.

تسربت الأخبار سريعاً إلى الصحف، فخرجت بعناوين مثيرة مثل «الزواج الذي هزّ أفريقيا» (دايلي مايل). وجدت الحكومة البريطانية نفسها في موقف حرج. فهي تريد تجنب بوتسوانا أخطار الحرب ولا تريد إغضاب جنوب أفريقيا التي تؤمن لها التغطية الذهبية من أجل تسديد ديون الحرب لأميركا، والأورانيوم اللازم للمعامل التي تعتمد الطاقة النووية. فقد هدد بيض جنوب أفريقيا بتأميم المصالح البريطانية في بلادهم، كمناجم الذهب، والخروج على نظام الكومنولث إن اعتلى سيريتسي العرش.



الأمير سيريتسي خاما وزوجته روث وولديهما

قررت بريطانيا أن تكسب الوقت، فقد أملت أن يؤدي الفارق الثقافي بين الزوجين إلى انهيار ارتباطهما سريعاً، وحاولت أن تبين أن هذا الزواج يهدد الاستقرار القبلي في بوتسوانا. لكن عندما عاد سيريتسي إلى بلده وظهر أمام المجلس القبلي، تلقى الدعم الكامل لإعتلائه العرش وإلى جانبه الملكة روث. صوّت أربعة آلاف شيخ إلى جانبه وعارضه أربعون فقط. عندئذٍ، غادر تشيكيدي المجلس حزيناً وقرر أن يتحول إلى مواطن عادي.

وهكذا، وقعت بوتسوانا في فراغ دستوري إذ لاحاكم فيها. لم يكن باستطاعة سيريتسي استلام مهامه إلا بعد موافقة بريطانيا التي حولت المسألة إلى لجنة خاصة لدراستها. خضعت البلاد لحكم استعماري مباشر حتى وصول المشكلة إلى حل.

في غضون ذلك، انتقل سيريتسي وزوجته إلى سيروي، عاصمة بوتسوانا. استمرت الحكومة البريطانية تراهن على انهيار الزواج إذ اعتقدت أن روث لن تحتمل شظف العيش في أفريقيا. لكنهم أخطأوا فهي استقرت هناك بسرعة وسهولة، دون أن تتخلى عن بعض عاداتها الغربية كارتداء السراويل الفضفاضة. وابتدأت فوراً في تعلّم اللغة المحلية وفي مصادقة أفراد العائلة المالكة. فقال عنها أحد الموظفين البريطانيين هناك: «روث خاماً امرأة رائعة قوية الارادة لا يمكن التغلب عليها.»

في كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، خرجت اللجنة البريطانية بقرار منع اعتلاء سيريتسي العرش في بوتسوانا إلا بعد أن تتغير الشروط.. أي بعد افتراقه عن روث. دُعي إلى بريطانيا ليشارك في المناقشات حول تنحيه عن العرش لكن روث رفضت أن ترافقه إذ شكّت في أنها ستمنع من العودة. كانت في هذا الوقت تنتظر أن تضع طفلها، وأراد الزوجان أن يولد سليل خاما في بوتسوانا. فغادر سيريتسي وحيداً. وفي المكتب المكلف شؤون المستعمرات في وايتهول، عُرض عليه ٨٠٠ جنيه سنوياً مقابل تنحيه عن العرش والعيش خارج البلاد. رفض الجواب قبل استفتاء شعبه لكن ذلك رُفض تماماً. فاجتمعت الحكومة وقررت عدم الاعتراف بسيريتسي ونفيه مدة خمس سنوات.

لأول مرة، قرر الكلام علانية، فدعا مراسلي الصحف لحضور مؤتمره الصحفي. وحدها صحافة جنوب أفريقيا رحّبت بقرار الحكومة البريطانية. أما الرأي العام البريطاني، فاتخذ جانب الحب والرومنسية ودعم الزوجين وشعب بوتسوانا الذي أراد سيريتسي ملكاً عليه.

كان الأفضل أن تعترف حكومة بريطانيا بهذه المسألة لكنها آثرت النفي.

في بوتسوانا، غضب الشعب وشتم الجنة وقراراتها وقاطع اجتماعات الحكام الاستعماريين. تحّول سيريتسي إلى نقطة استقطاب صحفية في لندن، وروث في سيروي. تحدثا إلى المراسلين بهدوء وثقة فازدادت شهرتهما في العالم.

حين تراجع الكلام حول هذه المسألة، سمح لسيريتسي بزيارة بلده لتسوية أوضاعه المالية وليشهد ولادة ابنه بشرط بقائه بعيداً عن الأماكن العامة. لكن حين وصل، وجد حشداً كبيراً ينتظره. فحيّاهم بلباقة وطلب منهم التفرق بهدوء. كم كانت فرحة مكتب الكومنولث كبيرة عندما وضعت روث طفلة أنثى.. فلو كان ذكراً، لازدادت حدة المشكلة.

غادر آل خاما بوتسوانا لقضاء السنوات الخمس التالية في لندن. أكمل سيريتس دراسة القانون ورزق بطفل آخر. في غضون ذلك، تغيرت الأوضاع في بوتسوانا لصالح عودته. لم ينسه أحد أبداً، فقد قامت مظاهرات في بريطانيا نفسها تطالب الحكومة بالعودة عن قرارها، وخصوصاً بعد إعلان سيريتسي أن الحكم الذي يناسب

بعد عودته إلى بوتسوانا، وجد سيرتسي مراقبة الاستخبارات له أمراً مزعجاً جداً. فوجود الزوجين المختلطين في هذا المجتمع كان يعتبر نهاية ادعاء الاستعمار وحكمه حول الخطر العرقي. فقد وُجد ملاحظة في أحد التقارير تشير إلى خوف انتقال عدوى الزواج المختلط إلى الأفارقة. فقد لاحظ الجواسيس امرأة بيضاء تقترب من روث في إحدى الحفلات وسألتها أن تجد لها زوجاً أفريقيا مناسباً.

بوتسوانا هو الانتخاب المباشر من الشعب. في الخمسينات، تحول سيريتسي وروث إلى مثالين لمناهضة التميز العنصري. بانتهاء الخمس سنوات، اقترب أوان انتهاء نفي سيريتسي . اعترف المسؤولون البريطانيون أنهم أخطأوا بشأن هذا الرجل.

بدأت مقدمات عودة سيريتسي إلى بلده بالظهور. فالعالم كله عادى النظام العنصري في جنوب أفريقيا، وبدأت بريطانيا تفقد دورها الاستعماري. اظهرت الأبحاث أن بوتسوانا غنية بالنحاس والفحم الحجري والماس، وقام فيها نظام انتخابي برلماني.

وفي العام ١٩٥٦، عاد سيريتسي وروث خاما وولداهما إلى منزلهما المطل على العاصمة سيروي. بقي عمّه في الحكم بعد أن رفض سيريتسي أن يتولى السلطة إلا من خلال الانتخاب، فألف حزباً سياسياً أوصله إلى سدّة رئاسة الحكومة عام١٩٦٥، وأمسى رئيس جمهورية بوتسوانا في العام التالي.

في تموز/يوليو ١٩٧٩، زارت ملكة بريطانيا جمهورية بوتسوانا والسيدة الأولى روث التي وجدته صعباً أن تتقدم على ملكتها في الحفلات الرسمية. وما إن وصلت الملكة حتى انعمت على سيريتسي بلقب فارس.

في نهاية الستينات، أصبحت بوتسوانا نموذجاً للديموقراطية الرافضة للتمييز العنصري في أفريقيا التي تشهد التوتر والكراهية العرقيين.

كان زواج سيرتيسي وروث خاما نموذجاً احتذاه أعداء الأبارتيد والتمييز العرقي، وبصيص أمل يضيء المستقبل.





2

أشهر الأسرار العالمية

1- أشهر السرقات

2- أشهر قصص الحب

3- أشهر الجواسيس

4- أشهر الجرائم

5- أشهر جرائم الحب

6- أشهر الجرائم الغامضة